
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
5
أسطورة
الموتى الأحياء



مقـــدمة ..

من هو الذى قضى الليل جوار مومياء الكونت (دراكيولا) ... ؟

من هو الذى صارع مسخ الذئب فوق ثلوج رومانيا تحت ضوء القمر ... ؟

من هو الذى لبى نداء الندّاهة وعاد ... ؟

الجواب واحد لايتغير ...

من هو الذى انتزع القربان من (وحش لوخ نس) ....؟

من الذى اقتحم شقة آكل لحوم البشر فى منتصف الليل ... ؟

إنكم تعرفون الجواب ...

إنه أنـا ...

الدكتور (رفعت إسماعيل) ...

من الذى جرؤ على تحدى د. (لوسيفر) ... ؟

من الذى دخل قلعة (فرانكنشتاين) ؟ ...

إنه أنــا ...

العجوز المحظوظ الذى لم يتل منه شىء سوى أثر السنين ...

والآن ...

من الذى سقط وحيدًا فى شرك الموتى الأحياء ، ومع الوجوه المرعبة المتآكلة للزومبى ... ؟ !

إنه أنا بالطبع ...

وكيف ؟ ...

أضيئوا الأنوار وأغلقوا الأبواب ، واسمعوا ما سأقول ...

★ ★ ★

١ - فى الأنتيل ..

إنها الواحدة والنصف صباحًا ..

ومحرك السيارة اللعين يأبى أن ينطلق ..

مئات المرات يفتش (هارى) عن خلل ما .. ، عشرات المرات يدعس دواسة البنزين .. ويتحسس أزرار لوحة القيادة دون جدوى ..

لقد ماتت السيارة تمامًا ..

وياله من وقت ... وياله من مكان .. !

على مسافة أمتار تلتمع شواهد القبور بمنظرها الشاعرى الكئيب فيما ضوء القمر الفضى البارد ينعكس عليها ... ، وثمة ذئب يعوى فى مكان ما يجاوبه ذئب آخر فى مكان آخر ... ، وابتلع (هارى) ريقه ..

كان صوته غريبًا فى ظلام العربة حين يتكلم ..

ـ على كل حال .. نحن فى مأمن هاهنا ..

ـ فلننتظر حتى الشروق ..

ـ لا مفر من ذلك ..

ثمة شىء يتحرك فى الظلام .. إنه يقترب منا فى تؤدة وبطء ..

ليس شبحًا بل هو رجل يرتدى فانلة داخلية ممزقة

وسروالاً مهترئاً .. ويرخى على وجهه قبعة من القش تحجب ملامحه عنا ..

لكنه يقترب .. وهو ـ حتمًا ـ سيقدم لنا العون والمأوى ..

وفجـأة ..

تصلب جسد (هارى) واتسعت عيناه .. وصرخ :

ـ (رفعت) ! .. أغلق زجاج النافذة جوارك .. اضغط زر تأمين الباب .. !

ولكن ..

صاح وهو يغلق النافذة المجاورة له :

ـ هل ترى يديه ؟ .. إنهما متآكلتان باديتا العظام ... إنه ليس مخلوقًا حيًا ..

كان ذلك الشيء يقترب بنفس السرعة الوئيدة .. حين أردف (هارى) :

ـ إنه من الزومبى ..!!

* * *

والآن دعونا من هذا الموقف السخيف وكيف سنخرج منه ، وتعالوا معى إلى بقعة قد لايراها أحدكم فى حياته ..

تعالوا إلى جزر الكاريب ..

هلموا إلى الشمس الاستوائية .. ورقصة (الكاليبسو) فى ضوء القمر ..

تعالوا إلى دقات الطبول .. ومزارع الموز .. والوجوه السمراء الجميلة الباسمة .. والدماء الحارة ..

هلموا إلى الأنتيل ..

* * *

أعرفكم أولا على هذا الشاب الأشقر الوسيم الذى رأيتموه معى فى السيارة .. إنه مهندس كمبيوتر أمريكى اسمه (هارى) .. هارى شيلدون ... ولا تدعوا كلمة (كمبيوتر) تمر عليكم مر الكرام لأنها ـ فى ذلك الوقت من عام ١٩٦٥ ـ كانت مجهولة تمامًا لنا .. وكانت تفوح منها روائح أسطورية مرعبة كأنها كهنوت السحرة .. أما اليوم فإن بعض الدول تعرف الشخص الأمىّ بأنه ذلك الشخص الذى لايجيد لغتى برمجة على الأقل .. ! !

هذا هو (هارى شيلدون) .. والآن تعال أعرفك هذه الحسناء المرحة .. ولاترمقنى هكذا ! .. إنها ليست صديقتى .. إنها زوجة (هارى) واسمها (ليندا) .. وهى كما ترى أمريكية جدًا جدًا..

أما هذا الشيطان الصغير الذى يركلك بقدمه ويخرج لنا لسانه فهو ابنهما (جيمى) .. وعمره سنوات أربع ..

كانت فكرة (هارى) هى اصطحابى معهم ـ من فلوريدا ـ لقضاء بعض الأيام فى (جامايكا) وهى رحلة أعتقد أنك توافقنى على أنها لن تتكرر فى حياتى أبدًا ..

خاصة وأننى أرافق هذه الأسرة اللطيفة التى تجيد الاستمتاع بالحياة ..

قال لى (هارى) وهو يمجد فكرته :

ـ ستكون أيامًا لاتنسى ياصغيرى .. سترى .. !

ولو تغاضينا عن مناداته لى بـ (ياصغيرى) كعادة الأمريكيين ـ برغم أنه يصغرنى بثمانية أعوام ـ لوجدنا أنه كان صادقًا فى كل حرف ..

بالفعل ستكون أيامًا لاتنسى .. !

★ ★ ★

والآن تعال يا (هارى) وحدثنى عن (جامايكا) ..

أنا أعرف أنها إحدى جزر الهند الغربية التى تمتد من (فلوريدا) شمالاً إلى فنزويلا جنوبًا على شكل قوس طوله ٣٢٠٠ كم ..

لكن لماذا هى (جزر الهند الغربية) ؟ .. مادخل الهند فى الموضوع .. ؟

يضحك (هارى) فى سخرية ويغمز (ليندا) ؛ كى تضحك معه .. ولسان حالهما يقول إنهما لم يتوقعا أن أكون بهذه البلاهة ..

ثم يقول لى وعيناه دامعتان ..

ـ أنت تعرف (كريستوف كولومبس) بالطبع ؟

ـ نعم .. فأنا قد دخلت المدرسة الابتدائية على كل حال ..

ـ وتعرف أنه حاول إثبات أن الأرض كروية وذلك بالإبحار غربًا متوقعًا أنه سيدور حول الأرض ليصل للهند ..

ـ طبعاً ..

ـ حسن .. لقد وصل (كولومبوس) سنة ١٤٩٢ ـ بعد رحلة شنيعة ـ إلى أرض حارة يسكنها قوم ذوو بشرة قاتمة .. من ثم اعتقد ـ ولا لوم عليه ـ أنه وصل للهند .. لم يعرف المسكين أنه وصل جزيرة (واتلنج) فى (بهاما) فى المكان الذى أطلق عليه (سان سلفادور) ... ثم اكتشف (هسبانيولا) بعد ذلك ..

ـ ولم يعرف خطأه ؟

ـ بل عرفه .. وأدرك أنه لم يثبت شيئًا للأسف .. وصار سخرية القوم حتى أنهم أسموه (أميرال أرض الناموس) .. ثم مات فقيرًا دون أن يعرف أنه وجد عالمًا جديدًا بدايته هى هذه الجزر .. جزر (الهند الغربية) ..

ـ حتى شرف إطلاق اسمه على العالم الجديد ناله رحالة آخر هو (أمريجو فسبوتشى) الذى من اسمه جاءت كلمة (أمريكا) ..

ـ لكن (كولومبوس) ترك اسمه فى دولة كولومبيا ..

- هذا صحيح .. ولكن القارة كلها كانت من حقه .. وأى ظلم !

- وما هى أسماء هذه الجزر ؟

يقول (هارى) وهو يداعب شعر ابنه فى رفق :

- اتحاد جزر الهند الغربية يتكون من عشر جزر .. إلا أنه فى عام ١٩٦٢ انفصلت عنه (جامايكا) و (ترينداد) و (توباجو) .. ونقلت العاصمة الاتحادية إلى بربادوس .. (*)

- وما هى جزر (الأنتيل) ؟ !

- (الأنتيل) هو مجموعة من الجزر البركانية .. أكبرها هى (كوبا) و (جامايكا) و (بورتريكو) و (هسبانيولا) التى تضم (هاييتى) و (الدومينكان)..

وكان سكان هذه الجزر قديما يدعون بالكاريب ، لذا سميت جزر البحر الكاريبى ..

* * *

ونمشى فى شوارع (كينجزتن) عاصمة (جامايكا)..

إن (جامايكا) جزيرة صغيرة مساحتها ١١٠٠٠ كيلو مترًا مربعا وتعدادها ١.٨٦ مليون نسمة لهذا لانتوقع أن تكون عاصمتها كبيرة جدًا أو مبهرة ..

(*) حدث أن (بربادوس) نفسها استقلت عن الاتحاد بعد ذلك بسنة .. أى فى عام ١٩٦٦

إنها ليست (نيويورك) مثلا ..

لكنها - برغم هذا - تتمتع بسحر خاص غامض ..

الأمطار الاستوائية لاتتوقف طيلة العام .. وبرغم هذا فالحرارة شديدة جدًا تصل إلى سبعين أو ثمانين فهرنهايت ..

مظاهر الفقر والبؤس واضحة .. نفس الملامح التى رأيتها فى كل مكان .. الوجوه القبيحة الكالحة التى تراها فى جبال الهملايا وفى أحراش (أوغندا) وفى سوق قريتك..

إن تنوع الوجوه يوجد فقط حيث الثراء والترف ... أما الفقر والبؤس فيجعلان الوجوه تتشابه فى كل مكان فى العالم ... نفس النظرات المعذبة ونفس الأطفال المهزولين يتلون بقذاراتهم من ثدى مهترئ لأم حافية كالحة الوجه ..

لقد نجح هذا المناخ الكئيب فى إطفاء جذوة حماسنا بعض الشىء ..

إن (جامايكا) بالتأكيد ليست بطاقة بريدية يرقص فيها الرجال والنساء حول أشجار الموز ..

لكن (هارى) و (ليندا) كانا - فيما يبدو - مصممين على الاستمتاع بكل هذا البؤس الذى لم يعتادا رؤيته فى

(فلوريدا) .. وقد رأيا فى كل هذا سحرًا خاصًا مليئًا بالإصالة . الأمر الذى لم يسعدنى على الإطلاق ... والأسوأ هو ما أعرفه ـ بحكم عملى ـ من أن هذه البلاد موبوءة بالجذام والزهرى والطاعون والملاريا .. و .. و ..

دعك من مرض (الشاجاس) لعنة هذه البلاد والذى ليس له علاج معروف وينقله نوع من البق بشع المنظر ..

ـ ربنا يستر !

قلتها لنفسى بالعربية بصوت مسموع وأنا أفكر فى كل هذه المصائب التى تنتظرنى بإذن الله هنا والتى قد أنجو بمعجزة من ثلاث أو أربع منها لكن الباقى سينالنى حتماً .. ! ... سمعتنى (لندا) .. فسألتنى :

ـ ماذا تقول : ... ؟

ـ لا شىء .. كنت أردد بعض عبارات الانبهار بهذا الجمال .. ! !

ونمشى فى شوارع المدينة تحت الأمطار ..

* * *

٢ ـ ضيف غير مرغوب فيه ..

ـ والآن أعتقد أننا سنشرب بعض الروم .. (*)

قالها (هارى) وهو يجلس على المائدة و (لندا) تعيد تعبئة الكاميرا بفيلم جديد ... وكان جو المقهى خانقًا رطبًا .. وظلام الليل يخيم على المدينة كأنه ثوب أسود ثقيل تمزقه ثقوب مصابيح الشوارع ..

اعتذرت عن شرب الروم بالطبع وطلبت من الساقى بالإنجليزية أن يحضر لى عصير ليمون ... لم يفهم شيئًا وظل يرمقنى فى بلاهة مما أثار حفيظتى ..

قال له (هارى) بالفرنسية أن يحضر بعض الروم لهم وعصير ليمون لى ..

ثم التفت لى باسمًا :

ـ ليسوا جميعًا يتحدثون الإنجليزية هنا .. يا صغيرى ..

ـ إذن فالفرنسية هى لغتهم ؟

ـ ولا الفرنسية .. إن اللغة هاهنا خليط من اللهجة المحلية واللغة الفرنسية .. والأسبانية .. والإنجليزية ،

(*) الروم والعسل الأسود هما محصول الصادرات الوحيد لجامايكا.

أى أنك يجب أن تجرب كل شىء قبل أن تتلقى نتيجة ما ..
وتناول الكاميرا من ليندا ليعبثها بنفسه .. وقال :

ـ لقد شهدت هذه الجزر احتلال الأسبان والفرنسيين والهولنديين ..

لهذا اكتسبت شيئاً من كل هؤلاء ..

ثم إن قربها من الولايات المتحدة جعل للإنجليزية أرضية لابأس بها هاهنا ..

ـ فهمت .. ولحسن الحظ أن فرنسيتى تفى بالغرض .. صحيح أنها ركيكة لكنى لا أعتقد أننى سأقابل هاهنا أحد أساتذة السوربون .. إن ما أعرفه يشكل (الحد الأدنى للأمان اللغوى) .. وهذا يكفى ..

ضحك (هارى) ونظر إلى (لندا) فى حيرة .. ثم سألنى :

ـ وما هو هذا (الحد الأدنى للأمان اللغوى) ؟

قلت فى كياسة :

ـ إنه الحد الأدنى من أية لغة ، الذى يكفل لك ألا تموت جوعاً ولاتنام فى العراء ولاتدخل السجن ...

لهذا فإن أول ما أتعلمه من أية لغة هو عبارات مثل : أين الفندق ؟ .. بكم ؟ .. أريد أن آكل ؟ .. أين المخفر ؟ .. أين المطار ؟ .. لا خمر ولا لحم خنزير من فضلك ..

ـ لقد نسيت أهم عبارة ..

ـ وما هى ؟ ..

ـ أين دورة المياه ؟ .. إنها ستوفر عليك متاعب كثيرة !

ـ لم أنسها .. لكنى لم أشأ ذكرها أمام (لندا) ..

ـ وهناك عبارة (أنا أريد الاتصال بقنصل بلادى) وهى ضرورية إذا لم ترد قضاء بقية حياتك فى أحد أقبية (ترينداد) أو سجون (صقلية) أو معتقلات (داهومى) ..! إن شعوب العالم عديدة وقوانينها كثيرة .. ومن الصعب ألا تخالف قانوناً ما وأنت لا تتخيل وجوده ..

ـ لا أفهم .. إن السطو والاختطاف والقتل جرائم عند كل الشعوب مهما تباينت .. إن القوانين شىء يستنتجه المرء بالسليقة ..

ـ مثلاً فى (أوهايو) يوجد قانون يعاقب من يركل كلباً يوم الأحد ... ! (*)

والآن تصور نفسك تسير فى (أوهايو) فى أحد أيام الآحاد والشوارع شبه خاوية وفجأة .. هوب ! .. يعضك ذلك الكلب فماذا تفعل ؟ .. بالطبع تركله .. عندئذ يمسك بك رجلا شرطة من قفاك ويحملانك إلى السجن .. هذا سهل جداً ... والآن ماذا تفعل لو كنت لاتعرف كيف تقال عبارة (أريد القنصل) بالإنجليزية .. ؟ ! !

لم أستطع أن أرد ... إن هذه المعلومة قد أثارت دهشتى

(*) حقيقة .

وقد بدا لى أننى - ما حييت - لن أعرف كل شىء .. بل سأزداد جهلا بذلك المخلوق غريب الأطوار عجيب الطباع : الإنسان ... لكنها خبرة أخرى لا بأس بها تضاف إلى رصيد خبراتى .. ولئن جاءت فرصة ما وذهبت إلى (أوهايو) فى يوم أحد ، ذكرونى ألا أركل أى (كلب) يعضنى هناك .. !

★ ★ ★

وجاء الساقى بما طلبنا فجلسنا نشرب ونتحدث ..

كان المقهى يفتقر إلى الرقى ... مستواه أقل إلى حد ما من مستوى الكافتيريا لكنه أعلى - لحسن الحظ - من مستوى الحانة .. ! ... وكان رواده من رجال ونساء مبعثرين على الموائد المتناثرة يتحدثون بلغة غريبة على مسمعى فى حين كان هناك صندوق موسيقا عتيق يبعث نغمات كئيبة تدعو للنعاس ..

وكان هناك عملاق أسمر ملتح يرتدى قميصا زاهى الألوان مشجرًا .. لا أدرى كيف واتته الشجاعة على ارتدائه - يقف على منصة الساقى يمازحه ويحسو شيئًا ما فى (شوب) كبير ..

وكانت هناك ثلاث حسناوات سمراوات يقفن جواره يثرثرن وهن يشربن عصير المانجو ... والساقى النحيل

الشاحب يجرى هنا وهناك كذبابة فى مصنع لتكرير السكر .. ! والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء ..

لقد حان وقت الانصراف .. والفراش الوثير .. والنوم ..

وفجأة .. ساد الصمت المكان ..

لم يعد أحد يثرثر وإن ظل الصندوق يرسل نغماته الكئيبة ..

العيون تتجمد فى محاجرها ..

الساقى تصلب فى مكانه فاغرًا فاه فى ذهول ..

الثلاث الحسناوات تراجعن للوراء وهن يرتجفن ..

وثمة كأس سقط من كف إحداهن فتهشم على الأرض ..

حتى العملاق الأسمر - الذى يمكنه أن يخيف الشيطان ذاته - تراجع وهو يرتجف وعيناه لاتفارقان ذلك الشىء الذى دخل ..

فى الواقع لم يعد شىء يتحرك فى المكان حتى دخان التبغ بدا وكأنه قد تجمد رعبًا فى الهواء ..

وبشكل غريزى نظرنا نحو المدخل لنرى ما هنالك ..

كان ذلك الشىء رجلا نحيلا ضئيل البنية يسير ببطء بين الموائد ..

رأسه مضمدة بمنديل قذر .. ويرتدى قميصا حال لونه وسروالا واسعا ممزقا فى أكثر من موضع .. وكان أضعف من أن يثير كل هذا الرعب فى نفس طفل صغير ..

وحين مر بمائدتنا بدأت أفهم ..

كانت رائحة عطنة تثير الغثيان تنبعث منه ..

أما الذى أثار ذهولى أكثر من أى شىء فهو يداه ..

كانت يداه بلا أصابع تقريبا وما بقى منها كان مجرد عظام عارية بيضاء ..

وحتى قدماه الحافيتان كانتا واضحتين تماما .. يمكنك أن ترى الأوتار والعظام وكل شىء فيها ..

ورفع رأسه فرأيت وجهه .. اللون الرمادى الغريب .. الأنف المجدوع والأسنان النخرة المتساقطة ..

وفى تجويف عينه اليسرى لم تكن هناك عين على الإطلاق .. مجرد حفرة سوداء بشعة المنظر .. والتجاعيد تملأ لحمه ..

وبدأت أفطن لسر ذعر كل هؤلاء ..

إن هذا الذى أراه ليس له سوى تفسير واحد ..

إن هذا الرجل هو جثة حية ..

* * *

وتقدم ذلك الشىء نحو (البار) بينما الجميع يفسحون له الطريق دون أن يجرءوا على إدارة ظهرهم له .. كلهم

يتراجعون للخلف وعيونهم لا تفارقه ..

وخلف (البار) وقف الساقى يرتجف .. حين تقدم إليه ذلك الكائن ووقف أمامه مباشرة .. كأنه ينتظر شيئا متفقا عليه ..

وفى حركات هستيرية شرع الساقى يصب الروم من زجاجة فى كوب كبير .. وقد سكب خارج الكوب أضعاف ما سكبه بداخله .. ولا ألومه كثيرا فى الواقع حين أضع نفسى مكانه .. وذلك الشىء على بعد أمتار منه يتأمله بعينه الصفراء الوحيدة باهتمام .. !

ومد الشىء يده العظمية إلى الكوب وشرع يحسوه فى نهم ..

ثم ألقاه على المنضدة طالبا المزيد وهو مالم يكن الساقى فى حاجة لفهمه .. فقد شرع يعيد ملء الكوب حتى قبل أن يوضع أمامه ..

نظرت بطرف عينى إلى (هارى) فوجدته يدير قرص حاجب الكاميرا وعيناه لا تطرفان عن المشهد .. اختار أوسع فتحة للحاجب مع السرعة (بى) التى تتيح له فترة تعريض يحددها هو .. أى أنه كان يستعد لالتقاط الصورة فى هذه الإضاءة الضعيفة بدون فلاش ..

ـ مامى .. ! .. أنا خائف .. !

صرخ (جيمى) وهو يدفن رأسه دامع العينين فى صدر



وفى حركات هستيرية شرع الساقى يصب الروم من زجاجة فى كوب كبير ..

(لينتا) التى تحسست شعره فى حنان وثقة بينما عيناها لاتفارقان ذلك الشىء .. إنها لخبرة مروعة لطفل فى هذه السن ..

(هارى) يرفع الكاميرا ببطء وحذر إلى عينه ويثبت مرفقه على المنضدة حتى لا تهتز يداه (وهو شىء حتمى مع هذه السرعات البطيئة) ... ويحبس نفسه ..

الساقى النحيل يهمس له بالفرنسية (وكان واقفًا بجوارنا) :

ـ سيدى ! .. بربك لا تفعل .. !

همس (هارى) وهو يحكم التصويب :

ـ ولماذا ؟ إنه لن يرى الفلاش ..

ـ سيعرف .. إن (دالماس) يعرف كل شىء ..

إذن اسمه (دالماس).. وهم يعرفونه وقد اعتادوه .. ،

وهذا الـ (دالماس) يلعب دور بلطجى الحانات الشهير .. كلاهما يفرض سلطته عن طريق الخوف ... الخوف من قوته الجسدية وبطشه فى حالة البلطجى .. والخوف من بشاعة تكوينه فى حالة (دالماس) هذا ..

على كل حال لقد نجح فى إرعابنا ..

إن الهلع الذى يغمر القاعة لهو مثال آخر على ظاهرة الإشعاع (السايكو فيزيائى) التى يتحدث عنها علماء النفس ..

هذه الظاهرة تفسر تلك العدوى النفسية التى تحدث فى حالات الحماسة والخوف والضحك والكآبة... فحين يصرخ جندى واحد : إلى الجهاد.. !! تدبّ الحماسة فى الكتيبة بأكملها.. وحين يضحك اثنان أمامك تجد نفسك تضحك معهما دون أن تعرف علام يضحكان ... وحين ينتاب الرعب الموجودين فى هذه القاعة يصيبنا نحن أيضا الرعب حتى قبل أن نعرف سبب رعبهم.. و..

كليك !..

لقد ضغط (هارى) زناد الكاميرا بعد أن أحكم التصويب..

وظل مثبتًا وضعه حابسًا أنفاسه لمدة ثانية كاملة قبل أن يرفع إصبعه من على الزناد ... إنه يدير رافعة الكاميرا من أجل لقطة أخرى ... كفاك هذا يا (هارى) .. لاشك أنه يريد الاطمئنان بأخذ عدة لقطات لأن الصور المأخوذة بالسرعة (بى) تفشل فى أغلب الأحيان ..

كليك .. ! ... ثم ... كليك ... !

ارتشف المخلوق ثمالة الكوب ثم وضعه فى حركة عنيفة على المائدة ، ولمحت يده العظمية تنساب فى جيب القميص العلوى مفتشة عن شىء ما .. ثم خرجت مفرودة وعليها .. قطعة عملة مدّ بها كفه إلى الساقى ..

لم أر من قبل مسخًا بهذه النزاهة .. !

مسخ يصمم فى كبرياء على دفع ثمن ماشربه من روم ..

إلا أن الساقى تراجع للخلف فى حياء متقزز .. وريبة مرعوبة ..

إنه لايريد من هذا الشيطان شيئًا سوى أن يتركه وشأنه ..

ألقى (دالماس) قطعة العملة على المنضدة فدارت بضع دورات حول حافتها قبل أن تسقط محدثة دويًا بدا لنا مرعبًا ..

ثم إنه استدار .. وببطء شديد أخذ يترنح بين الموائد .. أخذ الذين احتشدوا فى طريقه يفسحون له مرة أخرى وهم لا يجرءون على الإتيان بأية حركة مفاجئة ..

كان يسير فى تؤدة نحو مائدتنا ..

ـ مامى .. ! .. إنه سيأكلنا .. !

قالها (جيمى) الصغير وهو ينتحب ويحاول أن يختفى عن الوجود نهائيًا فى طيات ثياب أمه .. فازداد احتضانها له حزمًا وبسالة ..

وكانت يدا (هارى) ماتزالان قابضتين على الكاميرا حين وقف أمامنا ذلك الشىء وقد بدا فى أبشع صورة حين دنا منا ..

كانت عينه الوحيدة متصلبة على الكاميرا ..

وفى بطء ارتفع إصبعه السبابة العظمى نحو (هارى) وارتجفت ذراعه وهو يهمس فى صوت كفحيح الأفعى وبإنجليزية مهشمة :

ـ ها ... ها ... هاتها ! !

* * *

٣ ـ العرّافـــة ..

سادَ الصمت المكان وتحفّز الجميع لما سيحدث ...

نهض (هارى) وقد كوّر قبضة يده وتصلبت عظام فكيه ، وهتف فى غضب حقيقى :

ـ اسمع أيها المهرج .. ! .. لا أعرف من أية مباءة أتيت .. لكنى لا أخافك .. وعلى كل حال لن أعطيك هذه الكاميرا .. !

تصلّب جسد المسخ ووقف لحظة ساكنًا كأنه يزن الخطوة التالية ... ورأيت أننى يجب أن أفعل شيئًا ما يثبت أننى هنالك .. فوقفت أنا الآخر جوار (هارى) متصلبًا نافشًا عضلات صدرى متظاهرًا بأن كل ما أشعر به هو الغضب وليس الخوف .. !

لحظات مرّت تصادمت فيها الإرادات وبدا أن هذا الموقف سيستمر للأبد .. وحتى يموت واحد منا إذا كان هذا الشىء قابلًا للموت ..

ثم .. نظر لى نظرة لن أنساها أبدًا بعينه الصفراء .. ، أتبعها بنظرة طويلة إلى (لندا) الجالسة فى تحفّز .. أبشع نظرة رأيتها فى حياتى ..

ثم إنه استدار واتجه ببطء للباب .. واختفى فى الظلام ..

ظللنا ساكنين فترة ..

ثم ارتفعت التنهدات وأنفاس الخلاص ، وسمعت الساقى يهشم الكوب الزجاجى الذى لوثه ذلك الشىء فى اشمئزاز ... وارتفعت أصوات الإعجاب والتهنئة لى ولـ (هارى) على ثباتنا أمام هذا المخلوق المنفر ..

واقترب منه الساقى النحيل يحيط كتفه بإعزاز وهو يقول بالفرنسية :

ـ أنت شجاع ياسيدى .. ولكن أنصحك أن تحترس من (دالماس) .. فهو زومبى .. والزومبى لايغفرون ولاينسون ... عليك أن تغادر الجزيرة سريعًا أو على الأقل تعيد أسرتك إلى الولايات المتحدة ..

وارتجف فى تقزز مردفًا :

ـ لقد نظر نظرة وعيد مرعبة إلى زوجتك ... ألم تلحظ هذا .. ؟

إنها رسالة لاتحتاج لترجمة .. !

★ ★ ★

من الغريب أنه سمع صوت غالق الكاميرا وأدرك أننا قد صورناه ..

كان منظره يوحى بأنه لايعى أى شىء ..

قالها (هارى) وهو يصعد درجات سلم الفندق ـ فندق سان رامون ـ وهو يضع يده على كتف (لندا) ويمسك بيد (جيمى) شبه النائم ..

قلت وأنا ألهث لاحقاً بهم :

ـ على العموم لقد أثبت أنه مسخ متحضر .. يفهم فنون التصوير ويدفع ثمن مشروباته ..

ـ هذا هو الرقي ..

وعند غرفته ذات السريرين أولج المفتاح في الباب وتمنى لي ليلة سعيدة ..

فقلت له مداعباً :

ـ على كل حال احترس .. إن الصور مازالت معك ، وكما هي القصة دائماً ستجد عصابة مرعبة تطاردك لأن الفيلم يبين شيئاً ما لا تريد العصابة أن يراه أحد . أو ـ إذا كانت القصة مفزعة ـ سيدخل هذا المسخ غرفتك من الشباك هذه الليلة بغية قتلك وتدمير الفيلم .. !

ـ يا لك من داهية .. !

قالها وهو يلكمني في كتفي حتى كاد يخلعه .. ودلف إلى الحجرة مع أسرته ..

والآن أذهب إلى غرفتي ..

ليست فاخرة جداً ـ غرفتي ـ لكنها مريحة .. وبها جهاز تكييف يعمل بكفاءة لا بأس بها .. والفراش وثير إلى حد ما .. وخال من الحشرات لحسن الحظ ..

والآن أرقد في الفراش مستشعراً تلك المتعة المخدرة

التي يشعر بها المرء حين ينزع حذاءه بعد يوم مضنٍ ويدفن قدميه الساخنتين في الأغطية الباردة .. و ..

الباب يدق في حذر ...

نهضت متثاقلاً إلى الباب وعندي يقين شبه تام أنني سأجد الأخ (دالماس) واقفاً يرمقني بتلك الفجوة السوداء المريعة .. بحذر أزحت الرتاج وفتحت الباب فوجدت .. شاباً ناحلاً رقيق الملامح يقف في توتر مهذب كمن ينتظر الإذن بالدخول ..

نظرت إليه في تساؤل .. فقال بفرنسية رديئة النطق لكنها سليمة :

ـ سيدي .. أنا (جابرييل) خادم الغرف هنا .. هل تسمح لي ؟ !

ـ حسن .. أنا لم أطلبك يا بني ..

وكدت أغلق الباب لكنه عاد يتوسل ..

ـ رجاءً سيدي .. إنه لأمر هام وملحّ ..

تفكرت في الأمر ثم وجدت أنه لاضرر هناك من سماع كلمات هذا الفتى بعد إدخاله طبعاً .. وهكذا سمحت له بالدخول .. وأشرت له إلى مقعد كي يجلس .. قال وهو يتنهد في ارتياح :

ـ شكراً .. شكراً ..

- والآن قل ما عندك ..

- لقد قمتما بتصوير الزومبى (دالماس) هذه الليلة .. لاتسألنى كيف عرفت لأن لى مصادرى الخاصة ، والآن دعنى أحذرك .. يجب أن تغادروا (جامايكا) خلال ساعات إلى أى بلد آخر ..

تثاءبت وأشعلت سيجارة .. وسألته :

- هل هذا إنذار ؟ .. أعنى هل السيد يهددنى ؟

قال على الفور :

- لا .. لا .. هو مجرد تحذير لأن ماسيحدث غدا - لو لم تنفذوا نصيحتى - سيكون بشعا إلى حد لا يصدق .. ، وأنا أكره أن يُقال إننى تركت هذه المأساة تحدث برغم علمى أنها غير ضرورية ..

نفثت دخان السيجارة وقد نجحت لهجته بالفعل فى إثارة توترى ..

إن أول أمسية لنا فى هذه الجزيرة لاتبدو سارة أبدا .. سألته :

- هناك أشياء عديدة لا أفهمها .. مثلا من هو (دالماس) هذا ؟ ..

وما معنى كلمة (زومبى) التى تحدثوننى عنها كأنها من مفردات قاموسى أنا .. ؟ .. وما هى المشكلة فى صورة فوتوغرافية بريئة .. ؟

تفكر برهة .. ثم سألنى فى حذر ..

- هل تثق بى يا سيدى ؟

- نعم أثق بك كما أثق بأى شخص قابلته لأول مرة من ربع ساعة .. !

- رائع .. ! .. ارتد ثيابك وتعال معى لتقابل شخصاً يشرح لك كل شىء ..

لم يفهم الغبى دعابتى .. لم يفهم سوى أننى أثق به فعلا ..

لكن ثمة إغراء شديد بأن أستمر مع هذا الفتى للنهاية .. ، فالموقف مثير .. والفضول يقتلنى ، ثم إنه أضعف من أن يؤذينى على الأقل بيده المجردة .. أضف لهذا أن الإرهاق قد برّح بى إلى ذلك الحد الذى تنعكس معه الآية ويطير النوم من عينيك ..

لن أوقظ (هارى) لأن الأمر كله قد لا يكون سوى دعابة سخيفة ..

- وإلى أين سنذهب ؟

- إلى الزقاق الكائن خلف الفندق .. إنها شقتى ..

- حسن .. ولكن دعنى دقائق ريثما أبدل ثيابى ..

وما إن خرج حتى شرعت أرتدى ثيابى ، ولم أنس أن أدس مسدسى فى جيب البنطلون ، ذلك المسدس الذى لم يعرفوا فى الجمرك بوجوده معى خاصة وأن جهاز

الكشف عن السلاح لم يكن قد عرف بعد في تلك الأيام السعيدة قبل أن يخترعوا موضة خطف الطائرات ..

وعلى ورقة صغيرة كتبت التالي بخط واضح :

(هــارى) ...

لقد خرجت مع (جابرييل) خادم الفندق إلى داره في الزقاق الخلفي للفندق .. ، أرجو أن تتفقدني .. !

وأطفأت نور الحجرة وتبعت (جابرييل) بعد أن أغلقت بابي ... وعند عتبة غرفة (هارى) انحنيت ـ أمام عيني (جابرييل) المندهشتين ـ ودفعت بالورقة التي كتبتها من تحت الباب ..

للحظة بدت الحيرة على وجه الفتى .. ثم أضيء وجهه بالفهم .. وقال :

ـ آها .. ! .. أنت تخبر صديقك بمكانك كنوع من الاحتياط ..

ـ لم أعرف أنك عبقري فاعذرني .. !

ابتسم في عذوبة وقال :

هي فكرة جيدة ولكن في حالة واحدة .. أن يكون اسمي حقًا هو (جابرييل) وأن يكون بيتي حقًا خلف الفندق ...!، أنت لا تعرف عني سوى ماقلته أنا لك ..

ـ في هذه الحالة توجد حلول أخرى ..

ـ كالمسدس الذي في جيبك .. ؟ ! ..

وأشار إلى الانبعاج الذي أحدثه المسدس في جيب بنطلوني ، واستطرد :

ـ لا ألومك على هذه الاحتياطات لكن المسألة لا تحتمل كل هذا التعقيد .. إن هي إلا دقائق وتعود بعدها .. ثق بي ...

ومضينا في الطرقات المظلمة على صوت نباح الكلاب الضالة من بعيد ... كيف لو عرف أن مسدسي لايحوى سوى طلقتين ; لأني لم أشتر ذخيرة له منذ شرائه ؟ ! !

★ ★ ★

كانت رائحة شقته خانقة وأثاثها قبيح بالفعل ..

وفي غرفة الجلوس قدمني إلى عجوز زنجية شمطاء تساقطت أسنانها جميعًا والتجاعيد تملأ وجهها ... وكانت أظفار يديها طويلتين كالمخالب ورائحة زيتية منفرة تفوح منها ... ومن أذنيها تتدلى قرطان كبيران ..

ـ أمي (مارشا) .. أرجو أن تقدم نفسك لأني لا أعرف اسمك ..

ـ (رفعت) .. رفعت إسماعيل .. طبيب..

صافحتني العجوز بمخالبها ودعتني للجلوس .. ثم إنها أشعلت سيجارًا غليظًا خبيث الرائحة وجذبت منه نفسين في حنكة واحتراف ... وجرعت جرعة كبيرة من زجاجة بجوارها ... في حين قال الفتى في فخر :

ـ إن أمى خبيرة فى طقوس (الفودو) ..
ـ فو .. ماذا ؟
ـ (الفودو) .. إنه السحر الأسود الذى يُمارس فى جزر (الأنتيل).. وأمى ساحرة بارعة.. إنهم يشهدون لها بذلك ..
ـ ســ .. ساحرة .. بـ .. بارعة .. ؟
كانت العجوز ترمقنى ـ كالصقر ـ بعينيها الرماديتين وقد سرتها إطراءات ابنها ونظرات الرعب فى عينى التى لم تخف عليها بالطبع ..
ماذا يحدث لى ؟ أى شيطان يطاردنى كى أضع نفسى فى كل هذه المآزق ؟ .. مرة أتصارع مع مذءوب .. ومرة أصطاد وحشًا أسطوريًا .. ومرة أتسلل إلى شقة آكل لحوم بشر وحدى ليلا ... والآن أنا فى شقة ما فى (جامايكا) بعد منتصف الليل مع ساحرة خبيرة فى فنون السحر الأسود ؟ ! ..
بعد دقائق قالت العجوز فى صوت كغطاء تابوت ينغلق وبالفرنسية :
ـ أنت أيها الشاب الأبيض تحديت الزومبى ..
أبيض ؟ .. إن لونى الخمرى يسبب مشاكل عديدة لى .. فأنا أبدو أجنبيًا أينما حللت ! ! ... فى (نيجيريا) كانوا يقولون لى أيها الأبيض المستغل ! .. وفى (انجلترا) كانوا يقولون لى : أيها الزنجى المتخلف ! ... وحتى عند

(نورثنس) قال لى (آنفريد) قبل أن يموت : أيها الكلب الإنجليزى ! ..
قلت لها بفرنسية كسيحة :
ـ ولكن ـ معذرة ـ ياسيدة (مارشا) ..
ـ اسمى هو الأم (مارشا) ..
ـ حسن أيتها الأم (مارشا) ... لا أفهم من هم (الزومبى) بالضبط ..
نظرت إلى ضوء المصباح الذابل مفكرة .. ثم قالت :
ـ (الزومبى) هو اسمهم فى (جامايكا) .. فى (توباجو) و (بربادوس) يسمونهم الموتى الأحياء .. أعتقد أن الاسم الأخير مفهوم لك ؟
ـ نعم .. لغويًا ..
قالت وهى تتأملنى فى تركيز :
ـ فى كل مرة يمارس السحرة طقوسهم خلف النهر بصوت واحد .. وبعد ثلاثة أيام يغادر قبره فى الظلام .. عندئذ يسمونه (الزومبى) ..
وهم جميعًا يعرفونه وينكرون ملامحه لكنهم لا يجرءون على الكلام معه لأن (الزومبى) لايحب أن يلمسه أو يكلمه أو يضايقه أحد وإلا فالويل له ..
إن (الزومبى) ملعون للأبد..

إنه لايعرف الراحة الأبدية .. بل يجوب الأرض .. تخشاه زوجته ويخافه أصدقاؤه القدامى .. يتعفن وهو حيّ .. لايأكل ولايشرب ولاينام ..

- لكن (دالماس) هذا كان يشرب كالإسفنجة ..

- بالطبع تظل هناك عادات راسخة فى نفسه منذ كان حيًا يرزق ..

لقد كان (دالماس) سكيرًا فى حياته ... لهذا يكرر نفس ما كان يفعله ..

- وهل هو (الزومبى) الوحيد ؟

- كلا .. هناك ثلاثة فى (كينجزتن) .. وعشرات فى القرى التى حولنا ..

ثم إنها ابتسمت ابتسامة قاسية .. وهمست :

- أنت لاتصدق .. إننى أرى ذلك فى عينيك ! !

ابتلعت ريقى مفكرًا فيما عساى أقول .. ، ثم قررت أن أتكلم بصراحة :

- اسمعينى أيتها الأم .. أعلم أن ماسأقوله سيثير حنقك لكنى سأقوله على كل حال ... إن الأديان السماوية تؤكد وجود السحر الأسود لكنها تنكر قدرته على حرمان أى مخلوق من حقه الطبيعى فى الموت .. إن الخلود صفة الله سبحانه وتعالى ، أما نحن فلا خلود لنا على هذه الأرض .. وهو الذى يهبنا - وحده - الخلود فى العالم الآخر ..

تمتمت الساحرة فأدركت أن ليلتى لن تمر على خير .. وليلتى حتمًا ستنتهى إلى برغوث أو خنزير أو أى شيء مشابه .. الأمر الذى لايروق لى ..

بعد لحظات مدت ذراعها الضامر إلى كيس من الخيش حقير المعلقة بجوارها .. ومنه أخرجت حزمة من الأوراق ..

أوراق لعب قديمة مهترئة تنم عن إفراط حقيقى فى استعمالها ..

إننى أعرف هذه الأوراق ..

أعرف رسومها الغامضة .. وشكلها الكئيب المشئوم ..

إنها أوراق (التاروت) التى لايستغنى عنها السحرة ..

(بعد سنوات كانت لى قصة مريرة مع هذه الأوراق ومع د. (لوسيفر) .. وسأحكى لكم هذه القصة بالتفصيل - مع شرح هذه الأوراق المشئومة - يومًا ما .. فذكرونى وقتها .. !).

مدت لى العجوز مخالبها بالأوراق - بعد أن فكت قطعة (...) تضمها معًا .. وهمست لى وهى تمتص دخان السيجار :

- اخلطها .. ! .. لاتفكر إلا فى (الزومبى) وفى حادث ... ..

كانت الأوراق تفوح منها رائحة توابل وروائح عطرية



ومنه أخرجت حزمة من الأوراق :
أوراق لعب قديمة مهدلة تبدو [illegible] استعمالها ..

لا أعرف ماهى .. ، ولقد خلطتها وأنا أحاول - بوحى من نفسى - أن أركز تفكيرى فى ما طلبته منى برغم إيمانى بسخف الأمر كله ..

- والآن .. هاتها !

وتناولتها منى .. وشرعت تفردها بترتيب معين على المائدة وهى تلوك سيجارها دون أسنان .. ، ساحرة محنكة تعرف عملها تمامًا فيما يبدو ..

- آهـا .. القلعـة .. المنكـة .. ثم الذئب .. ثم المنكـة .. ثم ..

ولمحت آخر ورقة .. الورقة التى تمثل الموت فى صورة هيكل عظمى يمسك منجلًا ويحصد الرءوس ..، أيًا ما كان معنى ذلك الهراء فنهايته هى الموت .. الموت ولاشىء آخر ..

وسمعت صوتها - غطاء التابوت - يفح من جديد :

- ويل لكما من شرك الموتى الأحياء ! ! ..
لن يكون هناك آخرون ..
ستدفنان حيين .. !
وحين تغرب شمس الظهيرة ..
تحترق القلعـة ..
ويصرخ الذئب من الألم ..

لأنه لن يكون هناك آخرون ..

بعد اثنين ..

ربما بعد ثلاثة ..

ستفتح قبور كثيرة ..

لكن التراب الأحمر سيقذى عينيه ..

ولن يرى ..

ويموت أجنبيان ميتة الكلاب ! !

(فى لغتها الفرنسية كانت هذه العبارات مسجوعة) ..

ثم انها أحنت رأسها وشرعت تجمع الأوراق فى صمت .. قلت لها :

- كل هذا ظريف .. ولكن ما معناه ؟

لم تجب وواصلت وضع الأوراق فى الكيس .. بنظرة شاردة ..

- لا أفهم حرفًا واحدًا .. هلا شرحت لى ؟ !

تنحنح (جابرييل) فى كياسة .. وكان قد ظل صامتًا كالأسماك طيلة هذه المحادثة .. كان يخشى أمه كثيرًا ويرهبها دون شك ، وحين وضع كفه على يدى أدركت أن ضيافتى قد انتهت ..

- إن أمى لا تحب الكلام بعد نبوءات (التاروت) ..

- نبوءات ؟ .. لم أسمع منها سوى مقطوعة شعرية

رائعة جديرة بـ (اليوت) .. (*) لكنها إذا أرادت أن تخبرنى من شىء ما فمن الطبيعى أن أعرف ما هو هذا الشىء .. هذا حقى ..

ازداد صوته حزمًا وملمس يده صلابة وهو يقول :

- إنها لن تعطيك جوابًا .. فهى تترك فهم ما قالته لك .. والأحداث القادمة ستعيد لك ذكرى هذه المقاطع بوضوح .. عندئذ ستعرف ماينبغى أن تفعله .. والآن حان وقت العودة للفندق .. !

اتجهت فى استسلام وتبعته للباب وأنا أشعر بخيبة الأمل على الوقت الذى أضعته مع هذه المجنونة .. ولم استفد أى شىء ..

وهنا سمعت صوتها ينادينى فى خشونة ..

- تذكر ... !

التفت إليها متسائلا .. فقالت وهى تلوح بورقة الموت إليها :

- بعد اثنين.. ربما ثلاثة .. ! ! !

★ ★ ★

(*) ت. س. (إليوت) : شاعر إنجليزى عظيم اشتهر بغموض أشعاره وتعقيدها ..

واشهر قصائده (الأرض اليباب) و (أربعاء الرماد) .. وقد كان له تأثير كبير فى شاعرنا صلاح عبد الصبور .

٤ ـ ليـلـة الرعــب ..

قال (هارى) وهو يمزق قطعة الورق بين أنامله :

ـ أهنئك على الفزع الذى سببته لى ليلة أمس .. لقد خرجت من غرفتى لأدخن سيجارة حين وجدت هذه الورقة التى ترجونى فيها أن أنقذك ! ..

ورمى قصاصات الورقة من النافذة قائلا :

ـ ولكن بربك لماذا طلبت منى أن أنقذك قبل أن يحدث شىء ؟

ـ قلت لنفسى إننى إذا لم أعد حتى موعد استيقاظك صباحًا سأكون حتمًا فى ورطة .. عندئذ ستكون لفظة (أنقذنى) مناسبة جدًا .. أما إذا عدت فإن الورقة لن تكون ذات بال لأنى سأوقظك بنفسى صباحًا ..

ـ مشكلتى هى أن كل أصدقائى عباقرة .. !

هرشت فى رأسى بتواضع .. وقلت :

ـ والآن ماذا نفعل ؟ .. هل ننفذ ؟ !

ـ تعنى نبوءة العجوز ؟

ـ .. والساقى .. و (جابرييل) .. الكل يجمع أن صيبة ستحدث لنا ..

ـ على كل حال نبوءة الساحرة تتحدث عن اثنين وربما

ـ كما تقول أنت ـ أى أن أمامنا فترة أمان قدرها يومان .. وربما أسبوعان ..

ـ وربما شهران .. وربما عامان ..

قال (هارى) فى شرود وهو يجول غرفتى ويداه فى جيبه :

ـ على كل حال أعتقد ـ وأنت توافقنى ـ أننا لو أخذنا هذا التهديد مأخذ الجد فلن نحترم أنفسنا أبدًا بعد ذلك ..

قلت له فى كياسة :

ـ ولكن ما المانع من ترك هذه الجزيرة ؟ .. أنا لا أحبها كثيرًا فى الواقع ..

ـ لأن هذا جبن !

قالها كأنه يبصق .. فلم أشأ استفزازه ..

وفى هذه اللحظة وصلت (ليندا) و (جيمى) من جولتهما فى المدينة التى قررا القيام بها هذا الصباح برغم اعتراضى ..

وكانت (ليندا) متحفزة وغاضبة ، و (جيمى) متوترًا بشكل مريب ..

ثمة شىء ما فى وجه (ليندا) لا أعرف ما هو لكنه مختلف ..

الآن فهمت ..

إن هناك خصلة كبيرة تم قصها من شعرها الأشقر على

جانب الرأس الأيمن مما جعلها تبدو مشوشة المنظر ومضحكة إلى حد ما ..

- يبدو أنه (كوافير) أخرق جدًا يا (ليندا) .. !

قلتها مداعبًا وأنا أشير لرأسها .. لكنها لم تضحك وصرخت فى تنمر أن امرأة تربط رأسها بمنديل أح تسللت وراءها فى زحام السوق .. وبسرعة جهنمي أخرجت مقصًا .. وأمسكت بخصلات شعر (ليندا) الجميل وقصت حزمة لا بأس بها ثم ولت الأدبار قبل أن تفه (ليندا) ما حدث ..

فقط نظرات الشفقة والحيرة على وجوه من تصادف أ رأوا المشهد كأنهم رأوه كثيرًا .. ولسان حالهم يقول : ه ذى واحدة أخرى ! ..

قال (هارى) محاولًا تخفيف الجو المتوتر :

- إنها أرادت تذكارًا ذهبيًا يا عزيزتى .. فحصلت عل واحد .. !

قالت (ليندا) من بين أسنانها :

- لو أن هذه الذئبة سقطت فى يدى لأكلت قلبها .. أن رجل ولا تعرف كم تحب المرأة منا شعرها ..

أما أنا فقد بدا لى ما حدث مألوفًا إلى حد ما .. ، لما أرادت المرأة خصلة من شعر (ليندا) ؟ ..



وصرخت فى تنمر أن امرأة تربط رأسها بمنديل أحمر تسللت وراءها فى زحام السوق .. وبسرعة جهنمية أخرجت مقصًا .. وأمسكت بخصلات شعر (ليندا) الجميلة وقصت حزمة لا بأس بها ..

امرأة ترتدى منديل رأس أحمر .. أى أنها ـ بشىء من الخيال ـ غجرية .. وموضوع أخذ خصلة شعر يذكرنى بموضوع (الأثر) الذى يمارسه سحرة ريفنا المصرى ... خصلة من شعر الرجل أو المرأة توضع فى دمية من القماش ويتم إيذاؤها بشتى الوسائل ... والمفروض أن هذا الإيذاء ينتقل تلقائيًا إلى صاحب أو صاحبة الخصلات ..

إن هذا يبدو مألوفا لكنى لم أجرؤ على مصارحة أحدهما بما لن يتذوقاه من خواطرى ومخاوفى الخاصة الغامضة التى لن تثير سوى رعبهما أو سخريتهما ..

فلأبق هذه الفكرة المرعبة سجينة فى رأسى ..

ولأخترس ..

* * *

وغربت الشمس ..

وكنت جالسا فى أحد المقاهى أرشف فنجانا من الشاى المعطر حين دخل (هارى) المكان وجلس على مائدتى متحمسا ..

ـ هيا بنا .. !

قلت فى هدوء وأنا أضيف السكر للشاى :

ـ هذا اقتراح لا بأس به .. لكنى أعتقد أن من حقى أن أعرف إلى أين ؟

صاح فى غيظ وهو لا يدرى أيضحك أم يصرخ :

ـ ألن تكف عن هذه الردود الباردة المتحذلقة ؟ .. تحمس مرة واحدة لشىء ما وعندئذ ستفهم الحياة ..

ـ أنت تنسى أن أساتذتى كانوا إنجليزًا ... وكلهم شديدو البرود ، ويرون أنكم معشر الأمريكان مجموعة من المعتوهين الأثرياء ..

ـ ليكن .. !

ثم ارتشف جرعة من فنجان الشاى الخاص بى .. وهمس :

ـ إنها ليلة الموتى الأحياء .. !

ـ رائع ! ..

ـ أقسم لك .. هذه الليلة هى ليلة العيد الدينى الخاص بسحرة (الفودو) ... وهم يباشرون فيها طقوس صنع (الزومبى) .. ! .. تصور هذا يا صغيرى ..

ـ ومن قال لك هذا .. ؟

ـ إنها العجوز (أنجيلا) التى تبيع الزهور جوار الفندق .. ، قالت لى إنهم يمارسون طقوسهم خلف النهر قرب قرية اسمها .. اسمها ..

وهرش رأسه فى قنوط :

ـ إن هذه الأسماء اللعينة تتشابه جميعًا ..

ـ ولكن ماذا يعنينا فى هذا الأمر ؟ ! ..

ضرب بقبضته المائدة صائحًا :

ـ ألم تفهم ؟ .. يجب أن نذهب هناك .. !

ـ هل جننت ؟ ! ..

ـ إنها فرصة العمر .. معى الكاميرا وجهاز التسجيل فى الحقيبة .. ولسوف نذهب هناك ونسجّل للعالم أول طقوس (فودو) يراها .. سأرسل صورة صنع (الزومبى) إلى مجلة (لايف) .. إنه المجد .. !

ـ وهل تعتقد أن أحداً لم يلتقط صورًا لهذا المشهد من قبل ؟

ـ بالطبع يا صغيرى ..

وارتشف جرعة أخرى من فنجانى مضيفًا :

ـ إن أى غريب يرى هذه الطقوس مصيره الموت .. !

ـ وهذا يثير شغفك .. ؟

ـ طبعًا .. إنها الأرض البكر التى لم يرها مخلوق .. إنها جبال القمر .. إنها كهوف المحيط .. إنها غرفة الهرم الخفية .. إنها قمة (إفرست) .. وإن النصر الحق لهو أن ترتاد هذه الأماكن التى لم يسبقك إليها كائن حى ..

أشرت بيدى إشارة سريعة إلى الساقى طالبًا الفاتورة .. ثم قلت لـ (هارى) :

ـ اسمعنى يا (هارى) .. أنت لاتعرف عنى الكثير .. إننى لعصبية حية .. بل لعنة على قدمين .. وفى كل مكان أذهب إليه كنت أجد كارثة ما .. أو شيطانا لايراه سواى .. وحتى حين بقيت فى دارى ابتليت بأكل لحم بشر .. لهذا لدى خبرة لا بأس بها فى هذه الأمور ..

وعليه فأنا أرفض تمامًا هذا الاقتراح ..

ـ إذن سأذهب وحدى .. لقد استأجرت سيارة (فورد) صغيرة لهذا ..

ـ وأعود أنا إلى (فلوريدا) مع أرملة محطمة وطفل يتيم .. ؟ !

ـ بالطبع .. فالجبناء يعيشون أكثر من سواهم ..

وهذه هى مشكلتى .. أنا لا أستطيع أبدًا ـ ولو على سبيل التغيير ـ أن أقول كلمة (لا) بصوت مسموع .. ولو كان الناس جميعًا على شاكلتى فإننا جميعًا مجبرون بلا أية إرادة ..

ولهذا ـ كما تتوقعون ـ وجدت نفسى راكبًا السيارة جوار (هارى) ذاهبين (للاستمتاع) بطقوس الموتى الأحياء .. ! !

★ ★ ★

نحن الآن نشاهد طقوس (الفودو) الذى يمارسه سحرة جزر (الأنتيل) ..

ولو أردت أن تتخيل المشهد فعليك أن تتخيل بيتًا للجن يرقص فيه ألف شيطان .. ويدوى به ألف طبل .. فى ضوء ألف شمعة ..

تعال معى ولاتخف .. هات يدك فى يدى وتعال نخترق هذا الزحام ..

ستعبر هذا الزحام المكون من عشرات الشبان والشابات مبهورى الأنفاس متشابكى الأيدى .. وحاول ألا تشم رائحة العرق التى تملأ المكان ..

والآن احترس من أن تصطدم بهذا الراقص المحموم الذى يرتدى ثوب شيطان أحمر له ذيل وقرنان .. وحاذر من أن تتعثر فى هذه الراقصة التى ترتدى بذلة سوداء مرسومًا عليها هيكل عظمى بالطلاء الأبيض وهى تتمرغ فى التراب من حين لآخر ..

والآن تقدم معى إلى هذه البقعة المضيئة التى تنيرها ألف شمعة لاتدرى متى وكيف أوقدوها .. ولا تخف من تلك الجماجم المستخدمة كمصابيح يخرج اللهب من عيونها فهى لم تعد تؤذى أحدًا ..

هل تسمع صوت الغناء الجماعى ؟ .. وهل تسمع معى دوى الطبول ؟ إنه غناء رائع لكنه ـ للأسف ـ بلغة لا نعرفها ..

أما هذه المرأة التى تتلوى على إيقاع الطبول فهى ساحرتهم .. وهى كما ترى شابة حسناء لكنها مرعبة وقاسية كما يظهر من شكل فكها المربع ..

والآن تعال إلى الشجرة العتيقة .. شجرة البلوط التى يقف عندها شاب أسمر عارى الجذع مقيدًا بالحبال فى وضع مصلوب وعيناه تلتمعان بنشوة عارمة كأنه تحت تأثير مخدر ما ..

انعكاس اللهب يترقرق على وجهه المدهون باللون الأخضر ..

فى حين يسقيه رجل قصير أعور جرعات من شراب أحمر فى إناء .. كلا .. ليس إناءً .. إنه الجزء العلوى من جمجمة بشرية .. فلا تخف .. !

إنهم يلقنونه عبارات مسجوعة لا أدرى ما معناها .. والجمع يردد فى إصرار لفظة : (بعلزبول) .. (بعلزبول) ..

هل أنت خائف ؟ .. لا ألومك كثيرًا .. فأنا مثلك ..

هل أنت مشمئز ؟ .. بالطبع .. إن هذا الجو الملوث لا يناسب الأشخاص الحساسين مثلى ومثلك ..

الآن .. تعال معى إلى مخبئنا ـ أنا و(هارى) ـ بعيدًا عن هذا الجمع المجذوب وراء شجرة كثيفة الأغصان لا يصلها ضوء المشاعل ولا الشموع ..

لاتحدث ضوضاء لأن جهاز التسجيل يدور ملتقطًا هذه الأغانى اللعينة .. و (هارى) يصوب كاميراه مستعملاً عدسة الزوم والسرعة (بى) حتى لا يودى ضوء الفلاش بحياتنا إذا أحس به هؤلاء المتعصبون ..

الساحرة تخرج أفعى من كيس خيشى وتلفها حول عنق الفتى المقيد وتردد كلمات ما ... أما المفزع أكثر من الأفعى فهو أن الفتى لايبدو مهتمًا بالأمر برمته ..

قال (هارى) وعينه على الكاميرا :

ـ هل تفهم ؟.. إن هذا الفتى هو (الزومبى) القادم ... ولابد أن هذا الحفل سينتهى بقتله ..

ـ يا للهول ! .. وهل ستكتفى بمشاهدة هذا .. ؟

ـ إما أن ينتهى الحفل بقتله .. أو ينتهى بقتلنا جميعًا فماذا تفضل ؟ ! ..

ابتلعت ريقى شاعرًا بالعجز .. وأنا ألعن كل شىء فى هذا البلد بما فيه نحن .. وشرعت أراقب الأحداث الدامية فى توجس ..

والآن تتناول الساحرة شيئًا ما من نفس الكيس الخيشى فتلتهب الحماسة فى الجمع .. وتتعالى الصيحات ..

(كوديكا) .. (كوديكا) ..! !

إن ما فى يد الساحرة هو دمية قماشية رديئة الصنع

تمثل زنجيًا .. وها هى ذى تقوم بعمل عدة ثقوب فى بطن الدمية .. ثم تلقى بها فى اللهب لتحترق ..

ترى هل تخدعنى عيناى أم أن هذه الدمية تتلوى فى النار كإنسان يحترق ؟ ! !

والصيحات تتعالى وإيقاع الغناء يزداد سرعة ..

(كوديكا) .. (كوديكا) .. ! !

وتمد الساحرة يدها بدمية أخرى وتفعل نفس الشىء .. ثم دمية ثالثة امرأة بيضاء .. امرأة تغطى رأسها خصلات شقراء ذهبية حقيقية .. و .. لكن .. لحظة من فضلك ..

خصلات شقراء حقيقية .. ! !

إنى الآن أرى من تشبه هذه الدمية .. وأعرف متى وأين تمت سرقة هذه الخصلات من رأس صاحبتها ... صاحبتها التى لاتعرف مايحدث لشعرها الآن .. صاحبتها التى حلت بها لعنة (الزومبى) ! .. صاحبتها التى هى (ندا) .. ! ..

وكالملسوع وقفت صارخا فى (هارى) :

ـ اسمع ! .. يجب أن ننتزع منهم هذه الدمية .. !

ـ ولكن ماذا .. ؟

ـ لاوقت للشرح .. ! .. استعد للهرب .. ! ..

انتظرني في السيارة وأدر محركها ..

ـ هل جننت ؟ ..

ـ أسرع .. ! .. خذ جهاز التسجيل معك ..

ودون كلمة أخرى أخرجت مسدسي وبرزت من مخبئي خلف الشجرة مندفعًا نحوهم ..

نحو كهنة السحر الأسود .. ! !

* * *

٥ ـ هل نرجع سالمين ؟ !

بالجنون .. ! ؟ ..

لو أن أحدكم يعرف علاجًا يساعدني على نسيان الذكريات المريرة فليساعدني به .. ! ..

وفي كل ليلة يمتد بي الأرق .. فأشرع في استعادة شريط الأحداث كاملاً تلك الليلة القاسية .. ليلة الموتى الأحياء ..

ويسقط القلم من يدي .. !

* * *

والآن خذ عندك هذا المشهد ..

أنا أسرع ـ كشخص يتلوى في الجحيم ـ وأثب في ثلاث خطوات إلى حيث تقف الساحرة ..

وقبل أن يفهم أحد أي شيء هنالك وجهت لكمة هائلة إلى فكها المربع القاسي .. وانتزعت الدمية من يدها ..

ثم أطلقت طلقة رصاص في الهواء ..

تراجع السحرة وأعوانهم مذهولين ..

دست ـ في حركاتي غير الحذرة ـ على عشرات الشموع أسقطتها .. وهشمتها .. وسقطت نظارتي من على أنفي ..



وقبل أن ينهض أحد إلى هناك وجهت لكمة عاتية إلى فك الرجل الثاني .. وانتزعت الدمية من يدها .. ثم أطلقت طلقة رصاص في الهواء ..

إلا أنني استطعت الفرار ..

ولم أنس أن أطلق طلقة تحذير أخيرة قبل أن أولى الأدبار .. إلى السيارة الواقفة في الظلام بين الأشجار ومحركها يزأر منادياً إياى ..

وفي وثبتين قفزت إلى المقعد الأمامي جوار (هاري) الذي انطلق عائداً في الطريق الأسفلتي العائد للمدينة ..

* * *

وبعد بضع دقائق من الصمت المتحفز قال لي :

ـ والآن هلا شرحت لي ماحدث ؟

لم أنطق بحرف إنما ناولته الدمية القماشية .. فألقى عليها نظرة عاجلة ثم عاد بعينيه إلى الطريق المظلم ... وقال :

ـ وماذا بها ؟ .. مجرد دمية محلية قبيحة يمكن أن يرعب بها الأطفال .. ولا أعتقد أن (جيمس) سيحبها ..

ـ ألم تفهم أيها الغبي .. ؟ .. إن هذه الدمية هي فتيش (لندا) .. !

قال في بلاهة حقيقية :

ـ فتيش .. ؟ .. عم تتكلم ؟ ..

تنهدت في صبر وقلت :

ـ الفتيش هو تمثال صغير يرمز لشخص حي ويوضع فيه

شيء من متعلقاته كشعره أو أظفاره .. ويعتقد البدائيون أن كل مايحدث لهذه الدمية يصيب من ترمز إليه على نطاق أوسع يتناسب مع فارق الحجم ..

ـ إذن فقد شاهدنا هذه الليلة احتراق إنسان !

ـ ربما .. وربما كان الأمر كله هراءً محضًا ..

وضع يده على عجلة القيادة وهو يعيد لي الدمية :

ـ إذن أرادوا الانتقام مني في شخص (ليندا) ..

ـ هذا واضح .. لكني استطعت أن أمنعهم مؤقتًا ..

ـ ولكن .. ألا ترى أنك تبالغ .. ؟! .. كل هذه الضوضاء وإطلاق الرصاص من أجل خرافةٌ ؟! .. إنك طبيب وأنا خبير كمبيوتر يا بني ..

أشعلت أول سيجارة أدخنها من ثلاث ساعات .. وقلت وأنا أسعل :

ـ لا أعرف إن كانت خرافة أم لا ، لكني لن أترك شيئًا للاحتمالات .. وكل الأديان السماوية أكدت وجود السحر الأسود .. لهذا لا أحب كثيرًا ـ وأنت كذلك ـ أن نعود للفندق لنجد (ليندا) متفحمة .. !

ـ مازلت لا أصدق ..

ـ اسمعني : إن وجود السحر لاشك فيه .. السؤال الوحيد هو ما إذا كان هؤلاء سحرة أم نصابين .. ولن نعرف هذا إلا إذا نجحوا في إيذائنا .. !

قال وهو ينظر للطريق شاردًا :

ـ على كل حال فقد أزعجناهم بما يكفي .. ولن ننجو من ذلك ..

ـ هذا صحيح .. أعتقد أن كل أتباع (الفودو) وكل (الزومبي) في هذه الجزيرة يبحثون عنا الآن .. لقد استحققنا الموت بجدارة ..

إن ما علينا عمله هو شيء واحد .. أن نعود للفندق ونأخذ زوجتك وطفلك ونستقل أول طائرة إلى (الولايات المتحدة) .. لقد صار قضاء ليلتنا هاهنا في منتهى الخطورة ..

ـ ربما كنت مُحقًا يا صغيري ..

وتحسست وجهي تحت العينين في ضيق .. ثم قلت :

ـ ألم تلحظ شيئًا غريبًا .. ؟ .. عهدي بك هو قوة الملاحظـة ..

تأملني للحظة في تدقيق .. ثم هتف مذهولا :

ـ يا للسماء .. !

ـ نعم .. وأرجو أن توفر إظهار هلعك وشفقتك لأني متوتر بما يكفي ..

لقد سقطت نظارتي عندهم في أثناء صراعي .. !

مضى يقود السيارة شارد الذهن بضع دقائق .. ثم قال :

ـ هل تعتقد أنها تصلح .. ؟

ـ للفتيش ؟ .. لا أدرى فى الواقع .. هل سيصنعون دمية تمثلنى ويلبسونها هذه النظارة ؟ ! .. لا أدرى ..

ـ ولكن ـ لو صحّ هذا الموضوع ـ فمعنى هذا أنك ضائع تمامًا .. إنهم يملكون إيذاءك فى أى وقت يشاءون وأى مكان تهرب إليه .. !

صحت فى غيظ :

ـ أنا أعرف كل الجوانب الساحرة لهذا الموضوع فلا تستعرضها لى .. ! إن غدًا جميلًا مليئًا بالوعود ينتظرنى فلا تحدثنى عنه .. !

وهنا سمعته يئن بصوت مسموع .. فصحت فى هلع :

ـ ماذا بك ..؟

ـ إنه المغص .. إن أحداث الليلة لا تلائم قرحتى .. !

ـ يالك من وغد..!.. حسبت أن لعنتهم قد لحقت بك..

ـ على كل حال فهم لم يضيعوا وقتًا ..

ورأيته يشير إلى الطريق أمامنا الذى انعكست عليه كشافات السيارة فلمحت فى ضوء السيارة مجموعة من الوطنيين يقفون بعرض الطريق مشعلين نارًا على الأسفلت جعلت وجه (هارى) يتألق حيث جلس فى مقعده وقد تصلّبت يداه على عجلة القيادة ..

قالوا يمسكون بشىء ما بين أصابعهم السمراء .. هيكل عظمى كامل ثم ربط أطرافه ببعضها ليبدو كأنه واقف يسدّ الطريق علينا ..

وكان الغضب يلتهب فى عيونهم ..

صحت فى هلع :

ـ (هـــارى) .. ! .. لاتتوقـــف .. ! .. إنهـــم ينتظروننا .. !

قال وهو يضغط على أسنانه :

ـ لن أستطيع أن أدهمهم بسيارتى ببساطة .. إن هؤلاء المتعصبين لن يتراجعوا حتى إذا اندفعت نحوهـم بأرهبهم ..

ثم هتف فى توحش :

ـ لكن هناك حلا ياصغيرى .. !

وبأقصى سرعة داس على الفرامل فأنّت العجلات ملتاعة .. وارتطم رأسانا بلوحة القيادة ... وبمهارة لا تصدق أدار عجلة القيادة على آخرها .. وشد ذراع السرعات كأنه يهوى خلفه ..

وانحدرت السيارة خارجة من الطريق الرئيسى متسللة بين الأشجار .. وكان ضوء الكشافات ينعكس على الأشجار العتيقة التى أخذت تتسابق نحونا كأنها تتنافس أيها سيهشمنا أولا .. !

لكن (هارى) تفاداها الواحدة بعد الأخرى ..

وبعد دقائق كنا قد استعدنا توازننا وبدت مسيرتنا أكثر انتظامًا ..

ـ إن الفورد سيارة رائعة حقًا ..

ـ يالك من أمريكى مغرور .. ! .. لو كانت هذه السيارة ألمانية لقلت إنك أنت السائق البارع حقًا ..

ـ ربما .. لكننا نجونا على كل حال وهذا هو المهم بصرف النظر عن جنسية السيارة وسائقها ..

ـ والآن .. هل تعرف كيف نعود للطريق الرئيسى .. ؟

ـ إننا قريبان جدًا من (كينجزتن) ولايجب أن تكون هنالك مشكلة ما ..

ـ هذا ما أرجوه .. وأرجو أن تتذكر أن مسدسى فارغ من الرصاص الآن ..

* * *

إنها المقابر ..

لقد وصلنا فى فرارنا الأخرق إلى مقابر القرية ..

وضوء القمر الشاحب الحزين يفترش شواهد القبور محدثًا ذلك الأثر الدرامى الذى يعرفه كل ذى خيال خصب ..

إن هذا الكوكب المعلق هو مرآة لحالتك النفسية ..

حين تجلس مع حبيبتك تشعر أنه ثريا معلقة خصيصًا من أجلكما وتتذكر كلمات (روميو) و (جولييت) وأبيات (قيس) و (ليلى) ..

وحين تكون سعيدًا تشعر أنه وجه يضحك خصيصًا من أجلك ..

أما حين تخوض موقفنا المرير فلن يذكرك القمر سوى بالسحرة والمذءوبين وتحذير القدماء من سقوط ضوء القمر عليك وأنت نائم .. إلخ ..

غريب أن يجمع شىء واحد بين الأمل والحب والشاعرية والرعب .. ! ..

ولكن دعنا من هذا الاستطراد ..

إن الوقت لايناسب هذا الكلام لأن هناك خبرًا صغيرًا لابد أنك عرفت ما هو .. نعم .. هو كذلك .. ! .. لقد تعطلت السيارة .. ! !

إنها الواحدة صباحًا ..

وبعد عشرات المحاولات المستميتة من (هارى) بدأنا اليأس .. إن هذه السيارة (الرائعة) لم تتحمل كل هذا الإنهاك الذى استنزفها .. وعلى كل حال ليس الوقت مناسبًا كى أحدثه عن رأيى فى صناعة بلاده للسيارات ..

قال (هارى) :

ـ على العموم .. لا مفر من الانتظار .. نحن فى مأمن هنا ..

ـ (ولندا) .. و (جيمى) .. ؟ ..

ـ إنهما لن يغادرا غرفة الفندق ... ولن يصيبهما سوى قلق شديد علينا ... لكن (لندا) ـ كما أرجو ـ ستعتقد أننا نلهو في مكان ما في المدينة حيث لا يصطحب أحد زوجته..

ـ نلهو .. ؟ ! ياله من لهو .. !

وفي الظلام بدا لنا شيء يتحرك ..

كأنه رجل يرتدي ثيابًا ممزقة ويرخي على وجهه قبعة من القش .. وكان يتقدم نحونا في تؤدة وثقة .. حتى دخل دائرة ضوء القمر ..

وهنا تصلب جسد (هاري) .. وصرخ في رعب :

ـ (رفعت) ! .. أغلق زجاجك وأمن مفتاح الباب ..

ـ ولمـاذا .. ؟

ـ إن يدي هذا الرجل متآكلتان تمامًا .. إنه ليس مخلوقًا حيًا .. إنه من (الزومبي) .. !

★ ★ ★

ولكن ...

دعنا من هذا الموقف السخيف وكيف خرجنا منه وتعال معي إلى ما هو أهم ..

إن الجلوس في سيارة معطلة جوار المقابر في حين تقترب منك جثة حية متعفنة لهو أمر عادي قد يحدث للكثيرين ..

أما الغريب حقًا فهو ما حدث لـ (ليندا) في تلك الساعات ..

فيما بعد حكت (ليندا) أنها جلست في حجرتها تنتظرنا وهي تشعر بالملل .. وكان (جيمي) الصغير قد نام منذ ساعتين بثيابه كاملة ..

وتقول (ليندا) إنها أخذت تلعننا في سرها متخيلة الأشياء المخزية التي لابد أننا نفعلها الآن في إحدى حانات ([illegible]) الرخيصة ..

حين دق الباب ..

وقفت جوار الباب وسألت في حذر :

ـ من ؟ ! ..

ـ افتحي يا (ليندا) .. هذا أنا ..

ـ أه .. ! .. د. (رفعت) ؟ .. ! ! ...

ـ نعم .. هو أنا .. ! .. ولا تسأليني كيف .. هذا هو ما رأيته حين فتحت الباب ..

المهم أنني ـ كما تقول ـ دخلت الغرفة في لهفة وكنت أريحها ـ أنا ـ في ذراعي ووجهي ... وقلت لها إن (هاري) في مأزق وإنها يجب أن تأتي لأنه يريدها وقد [illegible] نور الصباح .. حجة مقنعة جدًا ..

وأما طلبك تفسيرًا مني صرخت فيها أن أسرعي لا وقت لدينا ..

من ثم لفت (جيمى) فى حرام صغير ـ وهو يئن متذمرًا ـ وضمته إلى صدرها لأنه لم يكن على استعداد للمشى .. ثم أغلقت الحجرة بالمفتاح ونزلت معه ـ أعنى معى ـ إلى بهو الفندق حيث أخبرت الموظف أنها قد تتأخر ثم خرجت معى إلى الشارع المظلم الذى يتعالى فيه نباح الكلاب ..

ألم تلحظ أى شىء غير عادى .. ؟

بلى .. لاحظت .. لأن (ليندا) امرأة شديدة الذكاء ..

لاحظت أن جروح يدى ووجهى خالية من الدماء ..

مجرد شقوق فى اللحم بلا أى أثر لأوعية دموية ممزقة ..

ولكن ما الذى يعنيه كل هذا ؟ .. هكذا سألت نفسها ..

ثم قالت فى سرها : إن الوقت لايتسع لهذه الملاحظات السخيفة ...

* * *

٦ ـ شرك الموتى الأحياء ..

كان (الزومبى) يقترب من سيارتنا فى تؤدة ..

وكنا ـ أنا (وهارى) ـ جالسين متقلصين وقد توقفت كل وظائفنا الحيوية تقريبًا بما فيها الهضم والتنفس والتفكير ..

اقترب من زجاج السيارة ناحيتى .. فلمحت وجهه ملاصقًا بالزجاج على بعد سنتيمترات من وجهى .. وكان يتأملنى فى اهتمام ..

لن أصف ملامحه حتى لا أثير تقززك ، لكنى أتركها لخيالك .. لقد رأيت (دالماس) معى فى المقهى .. حسن .. دعنى أؤكد لك أن (دالماس) كان شديد الوسامة إذا ما قارناه بهذا (الأخ) .. !

لابد أن (دالماس) كان حديث العهد بالتحلل العضوى ..

دار (الزومبى) فى بطء حول السيارة كأنه (جنرال) يتفقد قواته فى الميدان ... وعند ناحية (هارى) شرع يتأمله بنفس الطريقة مثلما فعل معى .. ثم امتدت يده إلى مقبض الباب وطفق يجذبه مرارًا دون جدوى محاولاً فتحه ..

ودون كلمة واحدة استدار (هارى) إلى الباب الخلفى الذى نسينا تأمينه وضغط الزرّ قبل أن يجرب (الزومبى) ذلك الباب ..



كان (الرومى) يقترب من سيارتنا فى تؤدة ..
وكنا ـ أنا و (هارى) ـ جالسين متقلصين وقد توقفت كل وظـ
الحيوية تقريبا ..

ومضت عشر دقائق ..

ذلك الشىء يجول حول العربة فى فضول كأنه قط يرى قنفذًا لأول مرة ولايعرف من أين يهاجمه .. أو كأنه بدائى يرى علبة سردين ولايعرف كيف يفتحها .. أو أى شىء آخر يناسب خيالك ..

ثم إنه عدل عن الأمر كله واستدار مختفيًا فى الظلام ..

صاح (هارى) فى جذل :

ـ لقد نجونا .. ! .. نجونا ياصغيرى .. !

قلت دون حماسة :

ـ إنها هدنة لا أكثر .. !

ـ وماذا يجعلك تظن ذلك .. ؟ ..

ـ لا أدرى .. أعتقد أنه يعتبر السيارة علبة (بولوبيف) مليئة باللحم الشهى .. وهو ـ حتمًا ـ ذاهب للبحث عن فتاحة .. ! .. مطرقة مثلا يهشم بها الزجاج أو مزيد من زملائه يفككون السيارة .. !

ـ يالك من متشائم .. !

ثم نفخ ليزيل ماتراكم فى صدره من انفعالات متوترة .. وهتف :

ـ ولكن .. أى مخلوقات شنيعة هذه .. ! .. أى شياطين .. ! .. هل رأيت وجهه حين ألصقه بزجاج

النافذة .. ؟ .. سيظل يؤرق أحلامى ماحييت ! ..

قلت له وأنا أنزل الزجاج طلبًا للهواء :

ـ رأيت .. وأدركت أن الأمر كله قد لايكون مرعبًا إلى هذا الحدّ ..

ـ ماذا تعنى .. ؟ !

قلت وأنا أشعل سيجارة :

ـ إن هذه الملامح المتآكلة المجعدة الشبيهة بالأسد .. والعين التالفة .. والأطراف المتساقطة .. كلها تبدو لى أقرب إلى حالة متقدمة من مرض الجذام المتدرّن .. حالة عوملت بإهمال شديد ولم تتلق أى نوع من الرعاية .. وفى حياتى لم أر هذه الدرجة من التدهور ..

ـ الجذام المتدرّن ؟ .. لا أفهم .. أنا أعرف أن الجذام متفشّ فى جزر (الهند الغربية) .. لكن الأهالى يعرفونه بلاشك ولن يخدعوا فيه ..

قلت وأنا أنفث الدخان فى الظلام ..

ـ هذه مجرد فروض .. إن شرود هؤلاء الأشخاص وغرابة أطوارهم مع اللون الرمادى الغريب لبشرتهم .. مع هالة الغموض المحيطة بالموضوع كله ـ مما ينفّر الناس من التفكير فيه ـ مع الظلام وبعض الرتوش البارعة .. كل هذا قد يخدع حتى الأطباء أنفسهم وأنا أولهم ..

لكن هذه ـ كما قلت ـ مجرد فروض .. أنا لا أؤمن بشىء اسمه الموتى الأحياء لأن هذا يعارض الدين .. ويعارض العلم ..

لكنى خائف مثلك وأشعر بالرعب فى عظامى ... هناك شىء لا نعرف كنهه يحدث هاهنا ..

قال (هارى) وهو يعبث فى مفاتيح السيارة :

ـ على كل حال فإن منطقك العلمى لاينفى أن هناك من يريد قتلنا وأننا فى مأزق حقيقى ... وسواء عندى أكان من يقتلنى حفنة من (الزومبى) أو حفنة من (المجذومين) فالأمر لا يختلف كثيرًا .. !

نظرت فى ساعتى وكانت الثانية بعد منتصف الليل ..

رفعت رأسى وقلت لـ (هارى) :

ـ إن بقاءنا هنا لا معنى له الآن لأن هذا الشىء سيعود حتمًا ومعه زملاؤه أو ما يفتح به السيارة .. ولهذا أرى أن نحاول الفرار على أقدامنا ..

ـ هذا هو ما كنت على وشك اقتراحه ..

★ ★ ★

ومضينا بين الأشجار نتحسس طريقنا فى ضوء القمر مبتعدين عن منطقة المقابر ... ولم ننس أن نأخذ معنا الكاميرا وجهاز التسجيل .. والدمية .. كان ظلانا يفترشان الأرض كلهبين صامتين ..

ولا صوت هنالك سوى صوت ذلك الذئب الذى يتبادل عبارات الغزل مع رفيقته .. وسوى صوت أرجلنا وهى تحتك بتراب الأرض الأحمر ..

إن تربة (جامايكا) حمراء اللون شديدة الخصوبة .. على أن نسبة لا بأس بها من أراضيها تتكون من الحجر الجيرى ..

وبدأت الأمطار الموسمية تهطل ..

وفجأة أشار (هارى) إلى بعيد .. إلى ضوء كوخ من القش يقف وحده بين الأشجار وقطرات المطر تنحدر فوق سقفه .. إنه المأوى أخيرًا ..

وهرعنا جريًا إلى الكوخ .. وعلى بابه المصنوع من قش مجدول وجدنا أداة تصلح كمقرعة .. وكان ضوء ما - غير كهربى - يتسرب من شقوق الجدار العديدة حين قرعنا الباب مرتين ..

وبعد دقيقة سمعنا حفيفًا .. وانفتح الباب فى حذر عن امرأة عجوز ترمقنا فى شك .. وكان ظهرها للنور فلم نتبين وجهها جيدًا ..

انحنى (هارى) فى كياسة .. وقال بالفرنسية :

- مساء الخير يا مدام .. أنا وصديقى قد تعطلت سيارتنا واعتقدنا أنه قد يكون شيئًا لا مبالغة فيه إذا ما سمحت لنا باللجوء من الأمطار ..

ماهذه اللغة السخيفة التى يستعملها ؟ .. إنه أسلوب مشهور عند من يتحدثون الفرنسية وهم ليسوا فرنسيين .. إنهم يعتقدون أن التحذلق والتراكيب المعقدة تجعل فرنسيتهم أكثر أناقة ..

وعلى كل حال لم يبد أن العجوز قد فهمت حرفًا .. !

قلت لـ (هارى) فى تشفٍ :

- وفر لغتك الرائعة لأنها لاتفهم الفرنسية ..

على أن العجوز هزت رأسها .. وأومأت لنا كى ندخل الكوخ .. إن الأمر لايحتاج على العموم للكثير من الذكاء كى تعرف عم نتحدث وماذا نريد .. وعلى كل حال نحن لا نبدو كاللصوص أو - على الأقل - ليس فى هذا الكوخ الحقير شىء يُسرق ..

وهكذا دخلنا ..

وكان الكوخ من الداخل أسوأ بمراحل منه من الخارج .. سلال معلقة ملأى بالبصل والموز .. وزجاجات متربة خالية من أى شىء .. وموقد كيروسين بدائى عليه قدر قذر يغلى مابه من طعام خبيث الرائحة .. !

وأشارت لنا المرأة إلى الأرض فجلسنا فوق بعض الخرق القماشية المتسخة ونحن نأمل - فى سرنا - ألا تأخذها نشوة الكرم الحاتمى فتقدم لنا العشاء .. !

إلا أنها شرعت بالفعل تصب لنا شيئًا فى علبتين قديمتين
صدئتين من علب الطعام المحفوظ .. وقدمته لنا ..

وهنا استرعى انتباهى شىء فى يديها ..

كانتا متآكلتين .. وقد سقطت بعض السلاميات ..

رفعت عينى إلى وجهها .. فرأيت أنفها المجدوع
وبشرتها الرمادية ..

لقد دخلنا الكوخ وجلسنا دون أن ندقق فى ملامحها
لحظة واحدة .. ويا لها من حماقة .. ! .. إنها واحدة
منهم .. !

ويبدو أن (هارى) قد رأى مارأيته لأن ظاهرة الإشعاع
السايكوفيزيائى قد مارست سلطاتها علينا فى ثوان ..

معًا انتابنا ذلك الرعب الذى لايعرف المنطق ..

ولم نسأل نفسينا لحظة واحدة عن الضرر الذى تستطيع
هذه العجوز – حتى ولو كانت جثة حية – أن تسببه لنا ..

يجب أن نهرب .. ! .. يجب ..

وقبل أن نتبادل كلمة واحدة وجدنا نفسينا نركض تحت
الأمطار متجهين إلى لا مكان .. !

* * *

وأخيرًا وجدنا الطريق الأسفلتى ..

وهناك وقفنا وشعرنا مبتل وثيابنا غارقة بالماء لكن

الجو كان حارًا .. ثم إن توترنا الداخلى جعل دماءنا تغلى
فلم يكن من الممكن أن نصاب بالبرد ..

كل ماهنالك هو أن هذه الأمطار جعلت الرؤية صعبة
هنا ..

وبعد دقائق لمحنا ضوء سيارة من بعيد ..

اتخذنا وضع (الأوتوستوب) بشكل مبالغ فيه حتى أننا
كدنا نسد الطريق بجسدينا .. وهى حماسة كاريكاتورية
لا مبرر لها أبدًا ..

ولم يكن هناك داع لهذا لأن صاحب السياة كان ينوى
التوقف بالفعل .. واقتربنا منه فى حذر شديد لأننا
توقعنا – ولا لوم علينا – أنه (زومبى) آخر .. ثم إن من
يقود سيارة فى الرابعة صباحًا لجدير ببعض التشكك ..

لكنه كان شابًا أنيقًا وسيمًا .. عيناه سليمتان وأسنانه
كاملة ولون بشرته أسمر جميل .. لهذا ركبنا السيارة معه
ونحن نشعر بالعرفان بالجميل كما لم نشعر به من قبل ..

امتنان لا حد له تجاه السيارة وصاحبها والقدر
والأمطار .. وكل شىء ..

– أنتما ذاهبان للمدينة ؟

قالها بفرنسية ممتازة .. فهززت رأسى بالموافقة ..
شرعت السيارة تنهب الطرقات .. وقد توقفت الأمطار

لكن الوحل كان يملأ الدروب الآن .. كل شيء كئيب غريب كأننا في كابوس ، وبدت لي حياتي في مصر وعالمي الخاص شيئًا بعيدًا جدًا ومرهقًا ... حتى الفندق و (ليندا) و (جيمس) و(جابرييل) .. كلها أشياء قادمة من عالم الأحلام ... وأن هذا الكابوس لن ينتهي أبدًا .. لايمكن أن ينتهي ..

ومد الشاب يده إلى قطعة قماش وشرع ينظف آثار بخار الماء التي ولدتها أنفاسنا الحارة على زجاج النافذة ..

وهنا التفت إلى (هاري) حيث جلس في المقعد الخلفي .. كانت عيناه متصلبتين ترمقان نفس الشيء الذي أثار فزعي ..

كانت يد الشاب شبيهة بالمخالب البيضاء الطويلة وهي تطبق على قطعة القماش .. !

إنه لكابوس .. ! .. فقط في الكوابيس يحدث هذا .. ! .. أن تهرب من شيء ما .. وتستنجد بمن تجده فيدير وجهه ببطء لك .. عندئذ تكتشف أنه ...

لا .. ! .. فلتهرب يا (هاري) .. ! .. فلتهرب .. !

كنا في أسوإ حال ، وقد هبطت حالتنا العصبية إلى الحضيض ... كنا على حافة الانهيار وقد بدا لنا أننا سنظل نصرخ رعبًا حتى نموت ..

وهنا التفت لي الشاب .. فلمح نظرتي إلى يده .. قال في شيء من الحرج :

ـ أنا آسف .. ! .. أرجو أن تسامحاني ..

ثم أنزل يده عن الزجاج متمتمًا :

ـ إن كفي الصناعية تحدث هذا الأثر في نفس كل من يراها أول مرة .. إنه ذلك الحادث الذي أطاح بها منذ سنتين ..

ثم رفع يده وشرع يفتحها ويغلقها في حركة ميكانيكية :

ـ لقد قمت بتركيب هذه اليد في (سان فرانسيسكو) العام الماضي .. وهي تؤدي عملها بكفاءة .. لكنها مرعبة ولا أنكر هذا ..

تبادلت مع (هاري) النظرات .. ثم تنفسنا الصعداء .. ! ..

لقد جرحنا هذا الشاب الرقيق في مقتل ... لكنه لو علم ما مررنا به في هذه الليلة الرهيبة لما لامنا لحظة ..

على كل حال فإننا شرعنا ـ وقد نسينا واجب الحذر ـ نحكي له أحداث تلك الأمسية .. وقد بدا لي متعاطفًا متفهمًا .. ونصحنا أن نغادر (جامايكا) بأقصى سرعة ممكنة لأن سحرة (الفودو) لا يعرفون المزاح ..

سألته ونحن ندخل شوارع (كينجزتن) الخالية :

ـ هل توجد مستعمرات جذام قرب هذه القرية ؟ !

قال وهو يبتسم :

- توجد واحدة .. لكن (الزومبى) ليسوا مجذومين إذا كان هذا ما تعنيه ..

إننا هنا نعرف مريض الجذام جيدًا ولن نخطئ تشخيص مرضه ..

وعلى كل حال أنا لم أر (زومبيًا) فى حياتى ..

قلت له فى غيظ :

- إنك لمحظوظ .. أما أنا .. فأقضى فى (جامايكا) يومين عندئذ أجد كل (زومبى) الجزيرة فى أثرى ، أذهب لرومانيا أسبوعيًا فأجد نفسى مهددًا بالتحول إلى (مذءوب).. وأقضى يومًا واحدًا فى (اسكتلندا) فأكاد أهلك بين أنياب وحش (لوخ نس) ..

كل هذا فى حين يوجد من لم ير هذه الأشياء من السكان الأصليين .. إننى لإنسان غريب .. ! ..

حقًا إننى لإنسان غريب ..

* * *

كانت أضواء الفجر تغزو المدينة حين دخلنا فندق (سان رامون) منهكين محطمى الأجساد والأعصاب .. والخدر يزحف لرأسينا ..

وفى المدخل كان عمال النظافة قد بدءوا يمارسون

عملهم اليومى وكان موظف الاستقبال محمر العينين من فرط السهر حين رآنا داخلين ، فقال لى وهو يتثاءب ويناولنا مفتاح الغرفة :

- هل السيدة لم تبت هنا الليلة ؟ !

- أية سيدة ؟

- السيدة الأمريكية وطفلها ... ألم تخرج معك فى منتصف الليل ؟ !

لقد كنت جريحًا وقتها ياسيدى وإنها لمعجزة أن تشفى فى غضون ست ساعات فقط .. !

* * *

٧ ـ أعيدوا لى زوجتى ! ..

كان النقيب (مارسيل) جالسًا فى مكتبه وقد بدت عليه الدهشة ..

كان قد فتح ياقة قميصه وفك ربطة عنقه طلبًا لبعض التهوية فى جو الظهيرة الرطب القائظ ... وكان أمامه كوب من عصير الليمون المثلج تكاثف البخار عليه من الخارج .. رابع كوب يشربه فى هذا اليوم..

ولم يكن يرجو شيئًا فى العالم سوى أن يُترك وشأنه حتى يجىء الليل بأنسامه الرحيمة ..

لكن (هارى) لم يكن على استعداد لترك أحد وشأنه فى هذا اليوم .. كان نامى اللحية منكوش شعر الرأس مبعثر الثياب ... وكان واضحًا أنه مسعور .. وأنه سينفجر صارخًا فى أية لحظة فى أى تعيس حظ يحاول أن يستفزه أو يدعوه للتعقل ..

وكان النقيب يقول فى استرخاء وهو يقلب كفيه على المكتب :

ـ والآن دعنى أسمع القصة مرة أخرى ..

صاح (هارى) فى هستيريا كما كنت أخشى :

ـ قلت لك إن هؤلاء (الزومبى) خطفوا زوجتى وابنى ..

ـ وتقول أيضًا إن صديقك المصرى هذا هو الذى خطفهما فى حين من المستحيل أن يكون قد فعل لأنه كان معك فى المقابر .. أليس كذلك ؟ .. حسن .. دعنى أصارحك أننى لا أفهم حرفًا ..

ـ ومن يفهم إذن ؟ !

ـ دون انفعالات من فضلك ..

ـ اسمعنى أيها الضابط .. أنا أريد القنصل .. أريد قنصل بلادى .. ! ..

ابتسمت فى سرى لأننى تذكرت كلماتنا فى تلك الليلة عن (الأمان اللغوى) .. وكيف كان (هارى) يرى أن عبارة : (أريد القنصل) هى أهم عبارة فى أية لغة أجنبية... لقد صدق كلامك يا (هارى) ولكم كنت أود لو كنت مخطئًا..

لكنى ـ بالطبع ـ لن أجرؤ على إعلان هذا الذى أفكر فيه لأن الظرف لايسمح بحال ، وأعتقد أنك توافقنى على ذلك ..

قال النقيب وهو يرتشف كوبه :

ـ فى العادة لانعتبر المفقود مفقودًا حتى تمر أربع وعشرون ساعة على اختفائه .. لهذا لا أرى أن اختفاء زوجتك اثنتى عشرة ساعة أمر يوجب القلق ..

صرخ (هارى) وقد فقد نهائيًا قدرته على الإصغاء المهذب :

لايوجب القلق ؟ .. حين تغادر امرأة وطفلها الفندق فى منتصف الليل وحيدين فى جزيرتكم العامرة باللصوص والأفاقين والسحرة، فإن هذا وحده كاف لجعلى أحترق !.. والآن قل لى ما الذى يوجب القلق ؟ .. أن تجد جثتيهما ..؟ !

أحسنت يا (هارى) .. ! .. إننى محروم من الزوجة والولد لكنى كنت سأفعل وأقول نفس الشىء لو أننى فى مكانك ... إننى أحب الرجل الذى يتحول إلى وحش كاسر حين يحيق الخطر بأسرته ..

إلا أن كل هذا النباح لم يؤثر فى الضابط .

ـ لقد قلت لك ما هو قانونى .. وما هو صواب .. وعلى كل حال فإن أول نشاط سنقوم به هو استجواب صديقك هذا..!، فهو آخر من رآها وآخر من خرج معها..!

وصل (هارى) لذروة فقدان الأعصاب :

ـ هل تمزح .. ؟ .. أقول لك إنه كان معى .. !

وتصاعد الحوار إلى درجة الغليان حتى بدا لى أن أحدهما سيقتل الآخر ... لهذا بادرت إلى الإمساك بذراع (هارى) ... ووجهت عبارات شكر مقتضبة إلى الضابط ثم سحبته ـ (هارى) لا الضابط ـ إلى الخارج وهو يرغى ويزبد ويتوعد مستعملاً كل أنواع الشتائم الأمريكية التى لم أسمعها فى حياتى بعد ..

لهذا عدنا إلى الفندق وجلسنا فى غرفتى نتشاور حول الحل الأمثل لهذا المأزق ... وكان (هارى) يؤمن أن الوقت ليس فى صالحنا .. لماذا ؟ ..

ـ لأن العرافة قالت لك إن أجنبيين سيموتان ميتة الكلاب ... ومن الواضح الآن أننى أنا وأنت لسنا هذين الأجنبيين .. ؟

ثم إنها قالت إن هذا يحدث بعد اثنين .. لو كان معنى هذا يومين فإن آخر فرصة لإنقاذ (لندا) و (جيمى) هى منتصف الليلة .. !

ـ لقد اختصتنا أنا وأنت بشرف الدفن حيين ..

ـ إذن سنهلك جميعًا .. ! .. هما يموتان كالكلاب وأنا وأنت ندفن ..

هززت رأسى فى استخفاف وقلت له ترجمة ـ عفو الخاطر ـ للحديث الشريف: كذب المنجمون ولو صدقوا..

قال وهو يذرع الغرفة كأسد سجين :

ـ على كل حال قد لاتكون العرافة (تنجم) .. بمعنى أنها قد تكون على علم بنوايا هؤلاء القوم من ثم جعلت إنذارها لنا فى صورة نبوءة ..

وهذا الاحتمال يجعل كلامها ـ برغم غموضه ـ جديرًا بالتفكير ..

ثم التفت لى فى تصميم :

ـ على كل حال أعتقد أن مفتاح السر عندها .. ولابد من زيارتها الآن ..

ـ هذا هو رأيى برغم نفورى الشديد من تكرار التجربة .. و ..

وهنا سمعنا صوتا خلف الباب ولمحت شيئا كالخطاب ينزلق من تحته صوت خطوات مسرعة تبتعد ... جريت للباب كالملدوغ برغم علمى أن هذه الحركات الميلودرامية قلما تفلح ... فالقصة دائماً هى أنك لن تجد أحداً خلف الباب وسينظر لك موظف الاستقبال فى بلاهة إذا ما سألته عما إذا كان شخص مريب قد مرّ به ..

وهذا هو ـ بالضبط ـ ماحدث ..

لهذا عدت للحجرة فوجدت (هارى) ممسكا بالخطاب وقد بدا الوجوم على وجهه ... ثم إنه ناولنى الورقة فوجدت عليها نقوشا غريبة رديئة ... وكانت أطرافها محترقة ـ على سبيل الزخرفة ـ وثمة رسوم بدائية لهياكل عظمية ثم رسالة بخط إنجليزى كبير الأحرف :

ـ « الكاميرا والجهاز عند شجرة الشياطين ساعة الغروب .. » .

قلبت الورقة بين أصابعى ثم قلت لـ (هارى) :

ـ هكذا فقط ؟ .. بلا أى نوع من التهديد ؟

قال فى وجوم :

ـ إنه نوع من البلاغة الأدبية .. الإيجاز وعدم ذكر الحقائق المفهومة ..

فهو يعرف أننا نعرف أنه سيقايض على (لندا) والطفل ... وهو يعرف أننا ننتظر طلب فدية من نوع ما لهذا يوفر الحبر والورق ..

ـ لكن من أدرانا أنه هو المختطف ؟

ـ ومن سواه يملك إجبارنا على أى شىء ؟!

تأملت الورقة برهة .. ثم قلت :

ـ على العموم كاتب هذه السطور إما شديد الغباء وإما شديد التخلف ..

ـ ولم ؟

ـ لاحظ أنه يريد الكاميرا والجهاز ـ طبعًا يعنى جهاز التسجيل ـ والأصح أن يطلب (الفيلم) و (بكرة الشريط) ... هذا هو مايناسبه فعلا .. إذ كيف يعرف أن الفيلم الموجود بالكاميرا هو المطلوب ؟ .. وكيف يعرف أن شريط التسجيل هو الذى سجلناه بالأمس ؟ ... كأنه لايريد سوى الكاميرا وجهاز التسجيل لأنهما غاليا الثمن .. وبالتالى فهو لص عادى جداً ..

ـ اللصوص العاديون لايطالبون بالمسروقات مستعملين أوراقًا عليها رموز سحرية .. لقد أساء التعبير فقط ، لكن كلينا يعرف مايعنيه .. وواضح أنه لم يعتد الكتابة بالإنجليزية ..

قلت وأنا أهرش رأسى :

ـ ومتى رأى هؤلاء الأوغاد أنك تحمل كاميرا وجهاز تسجيل ؟ .. لقد هربت أنت قبل أن يرونى إلى العربة .. وبالتالى يستحيل أن يكونوا علموا بما تحمله .. كيف يطلبون مايجهلون وجوده أصلاً .. ؟ !

قال فى غيظ :

ـ أنا لا أعرف إجابات أسئلتك السخيفة .. لكنى أعرف أن هؤلاء السحرة يمكنهم معرفة الكثير من الأشياء .. وعلى فكرة .. دع تفكيرك البوليسى جانبًا لو كنت تظن أن كل هذه مؤامرة معقدة دبرتها أنا للتخلص من زوجتى وكادت تنجح لولا هذا السهو الصغير .. ! !

صحت فى صدق :

ـ أقسم إننى لم أفكر فى ذلك لحظة .. أردت أن أقول إنهم حتمًا يملكون جاسوسًا رآك وأنت خارج بالكاميرا وجهاز التسجيل أو رآك وأنت عائد بهما ..

ضيق عينيه فى حذر .. وتمتم :

ـ مثل موظف الاستقبال .. أو (جابرييل) خادم الغرف ..

ـ ... أو (أنجليكا) بائعة الزهور العجوز التى لولا مشورتها ماتورطنا فى حكاية البارحة ..

ـ إن الثلاثة يثيرون الشك بنفس القدر فى الواقع ..

ـ على كل حال أعتقد أن لدينا حقيقة واحدة مؤكدة ألا وهى أن هناك شيئًا هامًا جدًا فى الصور وشريط التسجيل يهم السحرة ألا يعرف به أحد .. ؛ لذا ستكون خطوتنا الأولى هى تحميض الفيلم وطبعه ثم الذهاب إلى أم (جابرييل) لتفسر لنا ما هنالك ..

ـ وهل تثق بهذه العجوز ؟ .. إن ابنها مشكوك فيه ..

ـ لا أعرف ساحرًا آخر فى هذه الجزيرة للأسف .. فهل تعرف أنت ؟ !

* * *

وهكذا ـ اختصر القول ـ ذهبنا إلى الأم (مارشا) ولكن دون معونة (جابرييل) هذه المرة .. وكنا نحمل معنا حقيبة كبيرة ..

فتحت لنا الباب وهى تضع فى فمها ذلك السيجار الضخم الذى يجعلها تشبه رجل أعمال محنكًا فى عمله .. وما إن رأتنى حتى بدا لى أنها تعرف ماهنالك .. أشارت لنا

في فتور كي ندخل وراءها .. وعلى مقعدها المفضل جلست تواصل ماكانت تعمله .. قلادة بشعة الشكل يبدو أنها تحوى تعويذة ما ..

انحنيت في رقة وقلت بفرنسية حاولت أن تكون راقية :

ـ نهارك سعيد أيتها السيدة الحسناء .. !

قالت في فتور وهي تشير لنا كي نجلس :

ـ اجلس أيها المخاتل وقل لي ما وراءك !

جلسنا .. وشرعت أحكي لها حكايتنا المروعة منذ كنت عندها حتى خطف (لندا) بوساطة سحرة (الفودو) .. وهي تومئ برأسها ولاتنظر لي أو لـ (هارى) على الإطلاق .. فلما أن انتهت قصتي .. مددت يدي لها بالدمية التي انتزعتها من أيدي السحرة في تلك الليلة ... تناولتها مني وأخذت تقلبها في يدها بعين خبيرة وقد ارتسمت على شفتيها ـ صدق أو لاتصدق ـ ابتسامة حنين رقيقة ..!.. ثم قالت معجبة :

ـ إنها جيدة الصنع .. كنت أهوى العمل بها في شبابي .. ! .. (فتيش) متقن جداً .. ! .. ولقد أحسنت صنعاً حين أخذته منهم ..

ثم ناولته لي وهمست :

ـ خذ الحذر في التعامل معه .. فكل ماسيحدث له

سيحدث لها ... تخيل مثلاً أن فأراً قرض منه قطعة أو أن رماد سيجارة ملتهباً سقط فوقه ! ...

ارتجفت في هلع وقد أحسست بالقشعريرة تزحف فوق عمودي الفقري ... وتوتر (هارى) حيث جلس ... قالت في بساطة :

ـ والآن .. أرني هذه الصور ..

ناولتها الصور الفوتوغرافية الملونة التي التقطها (هارى) من مخبئنا خلف الشجرة في تلك الليلة .. وكانت موفقة جداً ..

لم تأت بأية علامة تدل على الاهتمام ... من ثم بدأت تشغيل جهاز التسجيل لتسمع الأغاني التي كانت على شفاه السحرة .. والكلمات التي كانت المرأة تلقنها للزنجي .. ثم صوت الجمع يردد : (كوديكا) .. (كوديكا) ..

ـ هذه الكلمة .. مامعناها .. ؟

ـ معناها : إلى الشيطان ... وهي جزء من طقوس حرق الفتيش ..

ولكن .. أنصت ..

صوت الصراخ يتعالى ... وصوتي وأنا أصرخ في (هارى) إننا يجب أن نسترد الدمية .. وتساؤله عن السبب .. ثم صوت طلقتي رصاص .. و .. (كليك) !



لم تكن بأية علامة تدل على الاهتمام ... ثم بدأت تشغيل جهاز
جيل لنسمع الأغانى التى كانت على شفاه السحرة ..

..(أغلق (هارى) جهاز الكاسيت لحظتها حين دخل السيارة ..) ..

وساد الصمت سوى من صوت دوران الشريط ..

- والآن ما رأيك ؟ !

قالت الأم (مارشا) وهى تبتسم ابتسامة مريعة :

- رأيى أن هذه الطقوس مزيفة .. كلها مزيفة ! .. هؤلاء القوم (يمثلون) طقوس (الزومبى) لكنهم لايمارسونها حقًا ... إنهم يعرفون كيف يبدو الأمر كله لكنهم يجهلون تفاصيله ..

وأمام عينى الذاهلتين - أنا و (هارى) - أشارت إلى إحدى الصور وقالت :

- مثلاً .. لف الأفعى حول العنق يتم قبل شرب الدماء وليس بعدها ... ثم إن دهان الوجه بالأخضر مجرد حيلة للتأثير الدرامى ولا أساس لها ... دعك من أن ترتيب الأغانى والكلمات ,التى تلقتها له كلها خطأ ... وكلمة (كونيكا) لاتقال إلا بعد الفداء الأعظم .. و ..

إنها عبقرية بالفعل .. ! .. ولو أننى كنت أجيد الطب إجادتها للسحر لصرت (أبو قراط) عصرى .. لكنها كانت غاضبة كبركان :

- يا للعار .. ! .. يا للعار .. ! .. إنهم لوصمة فى جبين (الفودو) .. ! ..

هكذا شرعت تدمدم فى حسرة .. وتسعل :

ـ هيه ! .. لم يعد هناك ضمير فى هذا العالم .. !، حتى (الفودو) صار مغشوشا .. كح كح ! .. اللعنة .. ! ..

قال (هارى) فى حيرة :

ـ ولكنك أبديت إعجابك بالدمية ..

قالت فى ازدراء وهى تمسح فمها بظهر يدها :

ـ هذا نوع سهل من السحر يمارسه حتى الأهالى العاديين ... أما (الزومبى) فيحتاج الى عبقرية .. والى تمكن غير عادى ... وقد انقرض جيل الأساتذة هذا منذ زمن .. ربما أنا آخر صانعة (زومبى) فى هذا البلد ..

فكرت برهة .. ثم سألتها فى حذر :

ـ هل سبق لك أن رأيت (دالماس) (الزومبى) الذى قابلتك من أجله أول مرة ؟

ـ بالطبع لا .. أنا أعرف (دالماس) حين كان بشريًا لكنى لم أره أبدًا وهو (زومبى) .. إن صحتى لاتسمح لى بالخروج ليلاً أيها الأجنبى ..

ـ لكنك تحدثت عنه فى ثقة ..

ـ إن ابنى (جابرييل) هو عينى التى تحكى لى كل شىء .. وهو يعرف (الزومبى) جيدًا ..

مددت يدى فى مظروف الصور وأخرجت منه ثلاث

صور لم ترها هى بعد .. صور (الزومبى) فى المقهى التى التقطها (هارى) خلسة وكانت سببًا فى تحرش (دالماس) بنا .. وسألتها فى حذر :

ـ هل هذا هو (دالماس) .. ؟ !

نظرت الساحرة إلى الصور فى تدقيق .. وغمغمت

ـ ولكن .. لا .. أعتقد أن ..

ثم مدت يدها بعصبية إلى كيسها الخيشى وأخرجت نظارة سميكة إطارها مكسور ووضعتها على أنفها فبدت كبومة عجوز ... وشرعت تتأمل الصور ثم هتفت :

ـ لكن هذا ليس (زومبى) .. إنهم لايبدون هكذا .. يا للغباء .. !

ثم خلعت النظارة وأعادت لى الصور :

ـ ليس هناك شك فى ذلك ..

ـ فى ماذا ؟

ـ هذا الرجل مصاب بالجذام ..

★ ★ ★

٨ ـ دكتور دلمار ..

لم أستطع إخفاء بسمة النصر التى ارتسمت على شفتى .. وقلت للساحرة :

ـ إذن لا وجود لـ (الزومبى) ؟..

ـ كلا .. (الزومبى) حقيقة .. لكن ليسوا من هؤلاء المدعين .. واضح أن هناك من حاول خداع هؤلاء الحمقى .. ونجح ..

ـ ثم وضعت يدها على رأسها كأنها تشعر بدوار وأردفت :

ـ ان إبتعادى عن (النشاط) فترة طويلة قد أدى إلى تدهور المهنة .. ويبدو أننى قد غدوت عجوزًا مخبولة سهلة الخداع ..

قلت لـ (هارى) من وراء كتفى :

ـ هل عندك أسئلة للمدام يا (هارى) قبل أن تنصرف ؟

رفع (هارى) رأسه كمن أخرج من غيبوبة عميقة .. وقال :

ـ هه ؟ .. نعم .. سؤال أخير .. كيف تأتى أن تخرج زوجتى مع (رفعت) فى حين أن (رفعت) لم يفارقنى ساعتها .. ؟ !

قالت الأم (مارشا) فى استخفاف :

ـ إنها حيلة سحرية بسيطة .. لقد فقد صديقك نظارته .. ومن السهل صنع (جبلة) (*) خارجية تشابه صديقك وتؤدى دوره بمجرد الحصول على شىء من ثيابه .. كالنظارة مثلًا التى لامست وجهه سنوات طويلة ..

ثم قالت مستدركة :

ـ لكن هذا لاينفى بالطبع أنهم صنعوا قناعًا من (اللاتكس) يشبه صديقك ـ أو شيئًا من هذا القبيل ـ وارتداه أحدهم ليخدع زوجتك ... لكنى أستبعد هذا لأنه ليس لديهم صور واضحة لصديقك .. ولم يكن عندهم وقت كاف لصنع واحد ... ثم إنهم لايستطيعون تقليد صوته وحركاته إلى الحد الذى يخدع زوجتك خاصة وهى تعرفه جيدًا ..

قلت فى شرود :

ـ هذا بالطبع إذا لم يكن موظف الاستقبال بالفندق كاذبًا..

ثم استدرت للعجوز وأحنيت رأسى فى أدب قائلًا :

ـ لقد كانت فرصة رائعة لنا أيتها السيدة الحسناء ..

(*) الجبلة الخارجية أو الاكتوبلازم فى زعم الروحانيين هى تلك الجزء من الروح الذى يمكنه إتخاذ شكل مادى ملموس يتخذ شكل بللورات أو شكل صاحب الروح ؛ ولاننسى هنا أن نتذكر قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

احمرّ وجهها قليلًا مما جعلنى أذهل .. المرأة هى المرأة .. يسحرها الإطراء حتى ولو كانت عجوزًا شمطاء .. وساحرة (فودو) .. ! ، لكن هناك نقطة أخيرة يجب استيضاحها قبل أن نفارق هذه الموسوعة الحية :

ـ هل امتلاكهم لنظارتى يتيح لهم عمل فتيش لى .. ؟

ـ كلا .. لابد من جزء من جسدك كالشعر أو الأظفار .. اطمئن إذن ... والآن انصرفا قبل أن ينفد صبرى ..

ـ ولن تفسرى لى نبوءة أوراق (التاروت) ؟

ـ لا .. ! ..

* * *

كانت الساعة الخامسة عصرًا حين اتجهنا إلى شجرة الشيطان .. وهى الشجرة التى كانت تتم عندها طقوس البارحة ..

وكانت بقايا آلاف الشموع المتصهرة تملأ المكان .. مع آثار عشرات الأقدام الحافية والمكسوة على التراب ... أما الشجرة نفسها فكانت عدة حبال ليفية تتدلى من أغصانها الحبال التى كان ضحية الأمس مقيدًا بها ... وكانت هناك دمى محترقة حتى التفحم .. وجمجمتان انتهى مابهما من وقود قوامه شحم الخنزير .. وزجاجات فارغة كثيرة مبعثرة هنا وهناك ..

لقد كان حفلًا صاخبًا . لكنى أفسدته فى حماقة لسوء حظهم ..

أخرج (هارى) من جعبته الكاميرا وجهاز التسجيل ووضعهما تحت الشجرة ثم أشار لى كى نتراجع ..

وسرنا ببطء إلى السيارة وركبناها وأدرنا المحرك .. وابتعدنا بها مسافة مئة متر حيث أخفيناها بين الأشجار وعدنا راجلين لنختفى بين النباتات مترقبين ما يحدث ..

ـ أرجو ألا يفكروا فى التأكد من محتوى شريط التسجيل ..

ـ عندئذ سنتظاهر بالغباء .. لقد نفذنا حرفيًا ما طلبته الرسالة .. الكاميرا وجهاز التسجيل ، ولم تشترط الرسالة وجود الفيلم أو شريط التسجيل .. وعلى كل حال فالغروب دانٍ وسنعرف كل شىء بعد قليل ..

ومضت ساعة أو أكثر ..

لاصوت هنالك سوى صوت أنفاسنا اللاهثة فى هذا القيظ وجو الخمول الرطب.. العرق يكسو صدرينا ويتجمع أسفل إبطينا.. والبعوض الشرير يئز من حولنا فى جشع..

الأشياء تبرد ببطء شديد ..

الموجودات تتلون تدريجيًا باللون الأرجوانى فى طريقها للأزرق .. والشمس تنحدر ببطء نحو الغرب ..

ملحمة الغروب الأخيرة تقترب من النهاية ..

والآن أرى و (هارى) رجلين يقتربان بخطوات متعثرة من مسرح الأحداث حيث شجرة الشيطان ... وفى ثقة العارفين يتقدمان نحو الكاميرا وجهاز التسجيل .. أحدهما طويل القامة والآخر أقرب للقصر ..

وحبسنا أنفاسنا فى ترقب ..

كانت ملامح الرجلين تدل على أنهما من (الزومبى) ... وكانت الأطراف المتسلخة والعيون الملتهبة الدامية تفتش عن أشياء أخرى متروكة هناك ... ثم إن أطولهما مدّ إصبعه العظمى إلى زر إعادة شريط الكاسيت ـ ببراعة وحنكة ـ وضغط على زر الاستماع .. بالطبع لاشىء .. لا صوت..

أما زميله فقد تفقد عداد الكاميرا ـ بنفس الاحتراف والتمكن ـ ثم فتح ظهرها ليجد أن الفيلم غيرموجود طبعاً ..

لقد اكتشفت الخطة وأدركا أننا نتحايل عليهما .. وهما ـ حتماً ـ سيحاولان الهرب لإخبار من أرسلهما أن فى الأمر خديعة ما .. يجب ألا يهربا .. يجب ..

تحفزت للقفز عليهما أنا و (هارى) لإرغامهما على الكلام إن كان لهما لسان .. إلا أنهما لم يستديرا .. ولم يهربا ..

فقط أشارا إشارة ما فلمحت عدداً هائلاً ـ يقارب العشرين ـ من هؤلاء الممسوخين يظهرون فجأة .. وينتشرون متجهين إلى الأشجار ..

لقد فهمت ! .. إنهم أذكياء إلى حدّ لم نتوقعه .. لقد أدركوا أننا رمينا لهم بطعم لاقيمة له .. ومادام هناك طعم فالصياد مختبئ فى مكان قريب ينتظر ..

والآن هم يبحثون ـ كالمحمومين ـ عن هذا الصياد .. !

★ ★ ★

صرخ (هارى) فى رعب :

ـ فلنهرب يا (رفعت) ! ..

نعم .. لقد فشلت خطتنا التى رسمناها كى نتبع هؤلاء الذين سيأتون لأخذ الكاميرا وجهاز التسجيل ، ولو كنا أكثر ذكاء لوضعنا فيهما الشريط والفيلم كى نوفر على نفسينا هذا الموقف ... لكننا لم نرد أن نعرض هذين الدليلين الهامين لخطر الضياع أو التلف .. ثم إننا تصورنا أن خاطفى (لندا) سيرسلون لنا بعض (الزومبى) الذين لايفقهون شيئاً ولايميزون الكاميرا الخاوية من المعبأة ولايعرفون كيف يديرون شريط تسجيل .. !

إن (الزومبى) قد تقدموا كثيراً فى هذه الأيام .. !

والآن تعال واجر معى .. إذا شئت أن تنتظر فهذا شأنك لكنى لا أضمن النتائج .. ! ..

تأمل وجوههم المتعفنة الرمادية وعيونهم الملتهبة وأيديهم التى تساقطت أكثر أصابعها .. واتخذ قرارك سريعاً .. هل تبقى ؟ .. لا .. ؟ .. إذن هلم واجر معى .. اجر بين الأشجار نحو السيارة ..

إننى لا أرى (هارى) .. لقد انفصل عنى .. هذا حسن ؛ لأنه ؛ سيشتت بحثهم نوعا .. ثلاثة منهم يقتربون وأيديهم ممدودة أمامهم تبغى الإمساك بأى جزء منك .. لاتتراخ .. ! .. اقفز هذه الحفرة معى ..

إنهم مجرد مرضى .. أنا واثق من أنهم مرضى .. ولكن لماذا يتصرفون بهذه الطريقة المرعبة ؟ .. لماذا يريدون رأسينا بهذا الإصرار .. ؟ .. من الصعب أن أصدق أنهم حقا ليسوا موتى أحياء ..

هل أخبرك بسرّ ؟ .. لقد تكاثف العرق المالح فوق أهداب عينى .. ولم تعد رئتاى قادرتين على جلب المزيد من الأكسجين لقلبى .. الألم يغزو عظمة القصّ .. إنها بدايات الذبحة الصدرية .... لكن لا وقت لذلك .. لن أهتم .. وإذا ما متّ سأكون قد نجوت ـ بشكل ما ـ من كل هذا الرعب ..



والآن تعال واجر معى .. إذا شئت أن تنتظر فهذا شأنك لكنى لا أضمن النتائج ..!..

اثنان يبرزان من وراء الشجرة .. كانا ينتظرانني ..

تراجعت بسرعة وقد فتحت فمي أعبّ به جرعات هائلة من الهواء .. ولكن .. هذان اثنان آخران .. لابد أن ستة منهم يتبعونني الآن .. لا أريد أن ألتفت للوراء لكني واثق أنهم خلفي .. وواثق أنهم على بعد متر فحسب مني .. أكاد أشعر بأناملهم المبتورة تلمس عنقي ..

ولكن.. أين أنت يا (هاري) ؟.. أنا بحاجة إليك.. إنهم ..

من وضع هذا الستار الأصفر أمام عيني ؟ .. لماذا يلاحقنني في كل مكان ؟

هناك واحد آخر هناك .. العرق .. قلبي .. الغشاوة .. و ... و ...

* * *

ها هو ذا ضيفنا الشجاع قد استرد عافيته ..

أنا ممدد في سرير نظيف رائحة ملاءاته زكية .. وثمة غرفة مريحة تدخلها الشمس ... كأنه مستشفى .. نعم .. هو كذلك ... اللون الأبيض في كل مكان ، وزجاجات دواء كثيرة جوار فراشي ... وثمة رجل وسيم وامرأة حسناء يرتدي كلاهما الأبيض يقفان ويرمقانني في مودة ..

قال الرجل بفرنسية متقنة لا تخرج إلا من فم فرنسي :

ـ أعتقد يا د. (رفعت) أن شرايينك التاجية ليست على مايرام .. إنه التدخين أيها الزميل .. التدخين ..

ثم إنه أخرج سيجارة من علبة أنيقة وأشعلها .. ! ... ثم أردف :

ـ أقدم لك نفسي .. د. (رينيه دلمار) .. فرنسي ... وحالياً أنا مدير مستعمرة (سان فرناند) للجذام ... وأنت ضيفنا اليوم في هذه المستعمرة المتواضعة ..

همست في تعب محاولاً أن يخرج كلامي ذا معنى :

ـ .. (وهاري) .. ؟ ..

ـ إنه في الغرفة المجاورة ... والسيدة الأمريكية والطفل الظريف .. كلهم هنا .. ضيوف في بيتي حتى ..

وتبادل ابتسامة لطيفة مع الممرضة ... إن مغزى الابتسامة لايخفى على أحد .. لكنه ظريف جداً هذا الوغد .. ظريف وودود حتى لأكاد أقول إنه حنون .. ! ...

قال وهو يصلح وضع الملاءة فوقي :

ـ أنت بالطبع تعرف كل شيء فلا داعي للمزيد من الإيضاحات .. لقد حصلنا على الشريط والفيلم اللذين أخفيتماهما في غرفة الفندق ... والواقع أننا بالغنا في أهمية ماتعرفان لأنه واضح تماماً ـ مما وجدناه ـ أنكما لم تفهما سوى أقل القليل ..

ـ إذن لِمَ كل هذا العناء .. ؟ ! ..

وضع يده على كتف الممرضة وابتسم :

- أولًا لا أحب كثيرًا أن يرى الصور كل من هبّ ودبّ ليقول إن هذه صور مجذومين ... ثانيًا لربما وقعت الصور في يد من يتعرف كاهنة (الفودو) ويلاحظ التشابه الشديد بينها وبين (مارلين) الممرضة في مستشفاي !

يا لغبائي .. ! .. كيف لم ألحظ هذا الفك المربع القاسي الذي كدت أحطمه بقبضتي في تلك الليلة ؟ ! ... وعلى العموم أنا مدين لها باعتذار :

- أرجو معذرتك يا آنسة .. لست ممن ....

قالت في رقة وهي تتحسس ذقنها ..

- يضربون امرأة ؟ ! .. لا عليك يا عزيزي .. لقد كان الموقف يستحق ذلك ... والواقع أنك لو لم تفعل لضاعت زوجة صديقك إلى الأبد .. !

بدت الدهشة عليّ وجهي .. هل هذه المرأة ساحرة حقًا أم مجرد ممثلة ؟ ..

وكيف استطاعت طيلة هذه الأعوام أن تخدع كل هؤلاء الوطنيين الذين يفهمون (الفودو) و (يتذوقونه) ولا يمكن أن يتلاعب بهم ساحر مزيف مثلها ؟ ..

وكأنما سمع الطبيب الفرنسي صدى مادار في خاطري .. قال :

- لاتندهش .. إن (مارلين) ساحرة (فودو) قديرة وقديمة .. لكن ليس إلى درجة صنع (الزومبي) بالطبع ...

وقد تمكنت - بعد جهد - أن تصبح (الأم الكبرى) لسحرة هذه الجزيرة .. وصارت تقيم حفلاتها الخاصة .. لكنها اضطرت لهذه التمثيلية للحفاظ على نفوذها ؛ لأن (الأم الكبرى) يجب أن تجيد فن (الزومبي) ..

قلت مفكرًا :

- وبالطبع لاتريد أن تقع الصور والشريط في أيدي خبراء يعرفون أن الأمر كله بلا جدوى ..

- هذا طبيعي ..

- ولكن ما نفع كل هذا ؟ .. لماذا لاتحاولان إقناع الناس أن (الزومبي) حقيقة .. ؟

- هو ذا بيت القصيد ..

قالها وهو يقذف سيجارته من النافذة .. وأردف :

- وهذا هو ما ستموتان - أو إذا شئنا الدقة - ستموتون قبل أن تعرفوه !

ثم نظر لي .. وقال بنفس الرقة والتهذيب :

- بعد ساعتين - ربما ثلاثة - ستدفنان حيين .. !

* * *

٩ ـ مـــأزق ... !

سرنا أنا و (هارى) مقيدى الأيدى بالحبال و (الزومبى) ـ أعنى المجذومين ـ يحيطون بنا حاملين خناجر طويلة غريبة الشكل ..

إن (الفيلا) التى يقيم بها د. (دالمار) تشابه قلعة حصينة مدهونة بلون أبيض أنيق ، وأشجار اللبلاب ونباتات متسلقة أخرى تحيط بها مما يعطيك انطباعًا بأن القلعة تحاول الفرار من براثن النباتات المطبقة عليها ..

وفى الحديقة ـ حيث تنتشر الوجوه البشعة النخرة ترمقك بنظرات خرساء ـ تنتشر نباتات استوائية غير معروفة .. وثمة نافورة .. وأقفاص عدة بها ببغاوات لطيفة الشكل ترمقنا فى لا مبالاة ..

كنا سائرين إلى حتفنا ولا نملك سوى السير ..

وكان د. (دالمار) يتقدم مسيرتنا فى حماس مهذب كأنه يرينا الطريق إلى غرفة الطعام فى بيته ..

ـ هلموا يا سادة .. ! .. من هنا .. من فضلكما .. أسرعا ! ..

قلت له وأنا أسير بين أحواض النباتات وأتأمل الوجوه :

ـ قل لى يا د. (دالمار) ..:

ـ أى شىء أيها الزميل المحترم .. ؟

ـ يبدو لى أن عقار (١٩٠٦) لا يعمل بكفاءة عندك .. ؟ (*)

قال وهو يضحك فى مرح :

ـ آه ! .. فهمت ! .. الواقع أيها الزميل أن هؤلاء البؤساء لايتلقون أى نوع من العلاج ولا رعاية التقرحات .. وهو إهمال متعمد بالطبع لأنهم يجب أن يبدوا مرعبين بشعين حقًا ..

ـ لكن هناك إضافات أخرى طبعًا ..

ـ طبعًا .. إننا نطلى جلودهم بلون رمادى بشع .. ونضيف بعض لمسات الماكياج .. وهكذا .. حسب مايتراءى لـ (مارلين) ..

وأخرج سيجارة دسها فى فمى وأخرى فى فم (هارى) وأشعلهما فى احترام حقيقى .. ياله من وغد .. !

قال (هارى) مدليًا بدلوه :

ـ وماذا عن موضوع الخروج من القبر .. والحقل .. و ... و ... ؟

(*) كان العقار (١٩٠٦) يستخدم فى علاج الجذام فى ذلك الوقت ، وقد صار الجذام اليوم مرضا قابلاً للشفاء التام بعد اكتشاف اللامبرين والدابزون والريفامبيسين .

قال د. (دالمــار) ..

ـ فلنتفق على شيء .. أنا لا أومن بوجود (الزومبى)... لكن معتقدات أهالى الجزيرة فرضت علىّ أن أنفذ التمثيلية كاملة ..

فى البدء يكون هناك رجل مجذوب أو مخبول يتمنى التحول إلى (زومبى) ..

يقدم نفسه لتربطه الأم الكبرى (مارلين) فى شجرة الشيطان ... ويبدأ الحفل بكل طقوسه التى شاهدتماها ..

ثم يموت الرجل فى نهاية الحفل ..

قلت فى امتعاض .

ـ يقتلونه إذن ؟

هز رأسه وابتسم :

ـ أنا استعملت تعبيرًا أكثر لياقة من تعبيرك ... على العموم بصرف النظر عن أى شيء فهو يموت فى نهاية الحفل .. عندئذ أختار أنا مجذومًا يشابهه إلى حدّ ما من جيش المجذومين الذى أملكه ..

ـ وهل هم كثيرون .. ؟

ـ حوالى ستمائة .. ! ... يتم اختيار شبيه له فى الطول والحجم ـ على الأقل ـ وأصنع له الماكياج المناسب ... ثم يظهر فى المدينة أو فى القرية التى جاء منها الشاب

الذى مات .. ويمارس عاداته ، عندئذ يعرف الناس أن صاحبهم أصبح (زومبى) .. ويتحاشونه ... قد يفكر أحدهم فى زيارة قبره .. عندئذ ماذا يرى .. ؟

قلت فى ضيق :

ـ يجد القبر منبوشًا ولا أحد فيه لأنكم نقلتم الجثة لمكان آخر .. !

ـ بالضبط .. إن الناس سهلو الخداع ... وهو لايرون إلا مايريدون أن يروه ... وحين تحيط المعتقدات الخرافية بشيء ما عندئذ يصير البحث عن الحقيقة شبه مستحيل ..

قلت له وأنا أوافق بشدة على عبارته الأخيرة :

ـ وهكذا تصير مستعمرة الجذام ومايحيطها منطقة محرمة على الأهالى جميعًا .. حزامًا من (التابو) ..

ـ إنهم يعرفون بالطبع أن هناك مستعمرة جذام .. ويظنون كذلك أن الأرض المجاورة لها تعجّ بالموتى الأحياء ، لهذا ينفرون .. ينفرون من الجذام وينفرون من (الزومبى) ..

ـ وهل حقًا لايوجد أى نوع من الرقابة عليك ؟

ضحك حتى دمعت عيناه ... ثم قال :

ـ رقابة ؟ .. بالطبع لا .. إنهم تركوا لى هذه المستعمرة وقالوا لى : عالجهم فهم أمانة فى عنقك ! ..

وتركونى ألهو كما أشاء .. أنا الآمر الناهى هنا ... ...

ثم بصق على الأرض بشكل ينافى أنيه الواضح وقال بحزن :

- إنهم مهملون ولا خلاق لهم ! .. وإذا أنا أسأت استخدام سلطتي مع هؤلاء التعساء فهى غلطتهم وليست غلطتى .. ! ... حتى البوليس يخشى زيارة هذه المنطقة .. فيا للإهمال ! .. ويا لموات الضمائر .. !

ثم هتف فى سرور وقد عاد للواقع :

- لقد وصلنا .. !

نعم وصلنا .. وصلنا إلى بقعة عارية من الأشجار مغطاة بالغبار .. الغبار الأحمر بلون الدم ... ولم تكن ثمة بقعة ظل واحدة ... وأشار د. (دلمار) إلى رجلين مشوهين فبادرا يحملان رفشين ويبدآن فى الحفر .. حفر قبرين لى ولـ (هارى) .. !

همس (هارى) بصوت لم يتعمد إخفاءه :

- وزوجتى .. و .. وابنى .. ؟

قال (دلمار) وهو يغمض عينيه ليحميهما من الغبار :

- لا عليك .. سيموتان ميتة الكلاب !

ضغطت على أسنانى .. وقلت وأنا أشعر بغيظ حقيقى :

- ألاحظ أنك تردد بالحرف الواحد ماقالته تلك الساحرة العجوز لى فى أوراق (التاروت) ... لا أعتقد أن نبوءتها كانت صادقة لهذا الحد ..

هتف فى استنكار :

- بالطبع لا .. ! .. إن (جابرييل) ابنها يعمل معى وهو الذى نقل لى نبوءتها التى ألهمتنى أفكارًا جديدة ... لماذا لا أدفنكما حيين - على سبيل الدعابة - وأقتلهما بالسم كالكلاب ؟ ..

صاح (هارى) :

- النبوءة قالت « سيقذى التراب الأحمر عينيه .. » .. هل تفهم معنى هذا ..؟!

- فى الواقع لا ..

- معناه هذا .. !

وفى ثوان رفس (هارى) الأرض بقدمه فتطاير الغبار فى عينى الفرنسى الحساستين .. ثم وجه (هارى) ركلة فى مفصل رجله ... وقبل أن أفهم أنا ما حدث بالضبط كان الفرنسى ممددًا على الأرض وعنقه بين فخذى (هارى) الذى أخذ يضغط عليه فى غل .. ويطبق على أسنانه كأنما مابين فخذيه صخرة يحاول تهشيمها ..

رائع يا (هارى) ! .. هكذا يجب أن يكون الدفاع عن عائلتك .. ولكم أحب الرجل الذى يوجه الركلات مقيد اليدين من أجل أسرته ! ... من حسن الحظ أنك ترتدى بنطلون (جينز) قوى الألياف وإلا لتمزق إربًا من جراء حركتك العنيفة ... وهانذا تقول له فى قسوة :

- والآن مُر رجالك أن يفكوا قيد صديقى ..!

- بالطبع لا ..!

قالها د. (دلمار) بصوت مبحوح وقد احتقن وجهه وبرز لسانه ..

- .. إن .. ر .. رجالى سيمزقون صاحبك إربًا لو .. لو لم تطلق سراحى ..

كان يحاول بيدين مرتجفتين فتح الشرك الذى أطبق على عنقه ..

وفى هدوء اقترب منى أحد الرجال .. ومد يده بالخنجر إلى عنقى ..

نظرته الخرساء المجردة من أى معنى تدل على أنه لن يجد أية صعوبة فى تحويلى إلى شرائح .. لن يؤنبه ضميره أبدًا ..

إن هذا الرجل واقع تحت تأثير مخدر قوى وأقسم على هذا .. إن عينه الوحيدة التائهة وذهوله المحيّر يدلان على ذلك ، لهذا ينفذون أوامره مهما كانت .. ولهذا لايفهمون حقيقة أنهم قد تدهوروا بسببه ، هو الذى كان ينبغى أن يحافظ عليهم .. ولهذا يبدون للناس غريبى الأطوار تائهين فى عالم آخر .. و .. اللعنة ..!

نصل الخنجر يقطع تركيبًا تشريحيًا ما فى عنقى .. وشىء دافئ لزج يسيل ..

- (هارى) .. !

- ماذا تريد ؟

- أعتقد أن هذا الرجل يذبحنى الآن ..!

- اصمد ..!

- لا أستطيع .. إننى لم أذبح قبل اليوم .. وإنها لتجربة مروعة ... ثم إنك لو حطمت عنق هذا الطبيب فلن ننجو .. سينقض علينا الباقون ويمزقوننا ..

- إذن هى مغامرة حمقاء .. ؟

- بالفعل ..

فتح فخذيه ليحرر عنق الطبيب الذى كان قد توفى تقريبًا ولم يعد قادرًا حتى على أخذ شهيق الخلاص ..، ونهض (هارى) وهو مغطى بالتراب الأحمر .. ووجه ركلة إلى الجسد الممدد على الأرض :

- إذن فلتنهض أيها الوغد .. دعنا ننته من هذه المهزلة سريعًا ... إننا لن ننتظر طيلة اليوم حتى تقتلنا ..

أنزل المجنون نصل خنجره من على عنقى ..، ووقف جوارى يلهث فى انفعال .. فى حين بدأ د. (دالمار) يستجمع نفسه المبعثرة على التراب الأحمر .. ، بدأ يقف على قدميه مترنحًا ممسكًا بعنقه .. ولون وجهه يعود لطبيعته ..، وفى إعياء قال :

- (ميرسى) يا سيدى ! .. لقد آلمتنى كثيرًا ..

- حقًا ؟.. أرجو أن تسامحنى..!.. كنت أداعبك فقط..

وعادا يقفان كصديقين يراقبان هذا الذى يحدث ... كان الرجلان قد أوشكا على الانتهاء من الحفرتين لتكونا قبرين جميلى الشكل ... وأشار (دالمار) إلى إحدى الحفرتين .. وقال وهو يمسح الدم من عنقى بمنديل معطر :

- أنت أولا ياسيدى .. كن ضيفى ..

تقدمت إلى الحفرة .. وأدليت جسدى فيها .. كانت ساخنة متزلقة الحواف ... لكنها غير عميقة .. فقد ظل عنقى فوق مستواها حتى عندما بدأ الرجلان يهيلان الغبار على جسدى إلى أن صرت مغمورًا تمامًا إلى العنق ..

رفعت رأسى متسائلا (لأننى أمقت الأعمال الناقصة) :

- لكن هذا خطأ .. لست مدفونا على الإطلاق ..

قال (دالمار) وهو يشير لـ (هارى) كى يتقدم للحفرة الأخرى :

- إننى لا أحب الأساليب الفظة فى القتل ... الموت البطىء يناسبكما أكثر ..

والآن تخيل نفسك فى هذا الوضع ليلًا .. إنك مالم تمت جوعًا ستأتى الذئاب كى تستمتع بنهش وجهك ... إن شهية الذئاب هنا غير عادية مما سيجعل الاحتمال الثانى أكثر واقعية ..

- وما جدوى أساليب الموت البطيئة الخاصة بالقصص المصورة هذه ؟ ..

لماذا لا تطلق علينا رصاصتين تنهيان كل هذا الضجيج ؟

- رصاص ؟ .. لا .. لا ...

قالها وهو يشيح بوجهه اشمئزازًا :

- أنا لا أحتمل الأسلحة النارية !

... ولكن ما الذى يمنعنى من قتل هذا المخبول ! ! ...

وتذكرت لحظتها كلمات (ديفيد لين) (*) الرائعة عن طريقة أداء دور الشرير فى السينما .. كان يقول إن هناك طريقتين .. الطريقة التقليدية التى يهدد فيها الشرير ضحيته وهو مقطب الوجه يرفع حاجبًا واحدًا ويتحدث بلهجة رجال العصابات .. أما الطريقة الثانية - الأكثر فعالية وتأثيرًا - فهى أن يبدو الشرير حنونًا رقيقًا يهدد ضحيته وهو يداعب عصفورًا أو يعيد تنسيق باقة من الزهور .. عندئذ يلفت أداؤه الأنظار ..

كم كان (ديفيد لين) سيعجب بالدكتور (دالمار) لو رآه ..!

(*) (ديفيد لين) : المخرج الإنجليزى العبقرى وأحد أعمدة هوليود السبع .. صاحب (لورانس العرب) و (د. زيفاجو) و (ابنة رايان) و (جسر على نهر كواى) .

إنه يحيينا كجنتلمان ويشعل لنا سيجارتين يضعهما فى فم كل منا .. ثم يهز رأسه مشجعًا .. وينصرف .. فيناديه (هارى) من مقبرته :

ـ اسمع أيها السفاح .. فلنعقد اتفاقًا ..

ـ على ماذا ؟

ـ على أنك لن تقتل زوجتى وطفلى إلا بعد شروق الشمس ..

ـ لا بأس .. ولكن لماذا ؟

ـ لأننا سنخرج من هنا ونمزقك إربًا .. ومادام ذلك سيحدث فإنك لن تستفيد من قتلهما شيئًا .. لذا إبقهما حيين لنا ، أما إذا هلكنا فى الليل فيمكنك أن تفعل بهما ما تشاء .. على الأقل ستجمع شمل العائلة فى العالم الآخر .. !

تفكر الفرنسى هنيهة فى هذا العرض الغريب .. ثم هز رأسه :

ـ موافق .. لكنكما لن تخرجا من هنا .. إنهم دائمًا ماينجون من هذه المواقف فى القصص ..!

ابتسم الفرنسى فى وداعة وهو ينفض الغبار عن بنطاله :

ـ من المؤسف يا سيدى أن هذه ليست قصة .. ! ... على كل حال أعدك كجنتلمان بأن أعطيك ـ وأعطيهما ـ الفرصة ..

ثم إنه أخرج شيئًا من جيبه .. وانحنى فوقى ليلبسه لى .. نظارتى ! .. لقد تشرخ زجاجها فى موضعين لكنها كانت مفاجأة رائعة .. لقد نسيت كيف تبدو المرئيات واضحة نقية بالنظارة ! .. يا لى من محظوظ ! ..

ـ لم أقصد تحطيم زجاجها .. إنها تلك المغامرة الميئوس منها التى قام بها صديقك الأمريكى ، لكنها قد أدت واجبها .. وبمجرد أن غادرتما مسرح الأحداث فى تلك الليلة استطاعت (مارلين) أن تأخذها وتصنع منها (جثة) كاملة تشابهك .. وأرسلتها للفندق لاستدراج المرأة والطفل ..

أما الآن فلم تعد بى حاجة إليها .. ومن القسوة أن أدعك تموت بأنياب ذئب دون أن تراه .. ! ! .. هذا حقك الذى لن يحرمك منه أحد ..!

* * *

١٠ ـ الخلاص ..

منتصف الليل ...

عواء الذئاب يتعالى ... ولم يعد هنالك معنى لشىء .. لم يعد لقدمى وجود ولا ليدى ولا لبطنى .. رأسى هو الشىء الوحيد الحرّ فىّ .. الظمأ يقتلنى .. الملل .. الألم، وعلى بعد أمتار منى يقف رأس (هارى) ... ذقنه متدلٍ فلا تعرف إن كان ميتاً أم نائمًا .. ذباب كبير الحجم يقف ويلهو على أنفه ووجهه .. الذباب يحاصرنى فأحاول طرده بتقليص عضلات وجهى وتحريك لسانى .. لكنه مصرّ ..

فليتنه كل هذا سريعًا .. ليتنه كل هذا ..

والآن حانت النهاية ... هاهو ذا ذئب ضخم أشعث يقترب منا فى تؤدة .. ظله الأسود الكبير فى ضوء القمر .. صوت زئير خافت منفر .. رائحة أنفاسه الكريهة .. عيناه الناريتان ... إنه يقترب منا ببطء .. ويدور حول رأسينا فى حذر محاولاً فهم ما هنالك ... ثم إنه يقف مفكرًا لدقائق بأى الرأسين يبدأ .. الأشقر أم الأصلع ؟! ..

بالطبع بفضل الرأس العارى .. فى تؤدة يتقدم نحوى .. أرى تفاصيله عبر زجاج نظارتى التى تشوه الرؤى .. لست خائفًا .. لست غاضبًا .. فقط لا أصدق ... إن هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط ..



عواء الذئاب يتعالى ... ولم يعد هنالك معنى لشىء .. لم يعد لقدمى وجود ولا ليدى ولا لبطنى ..

(ماجى) كانت تحبنى وكنت أحبها فلماذا لم نتزوج ؟ .. إن (رضا) أخى على ما يرام بعد نداء النداهة .. وقد صار (عزت) جارى آكل البشر فنانًا شهيرًا.. لكنه لم يشف بعد .. والرعاة قتلوا (إيكاترينا) .. و ... (ماجى) .. هل ستعرفين يومًا ما أن ذئبًا مزقنى فى مستعمرة جذام فى (جامايكا) ؟ .. ماذا ستقولين ؟ وكيف ستبكين ؟ .. وكيف ستتساءلين عن الشىء الذى رمى بى فى هذا المأزق ؟ .. و (هويدا) أخت زوجة عادل .. ستنتظرنى .. ولن تصدق أننى لن أعود ... و ...

الذئب يصرخ من الألم .. !

مثل النبوءة يصرخ ! .. والآن أستطيع أن أراه يركض مبتعدًا وهو يعوى فى حين يقف شاب أسمر ممسكًا بشعلة نار .. ووراءه سيدة عجوز ..

إنه (جابرييل) .. وأمه (مارشا) ..!.. لقد وصلا فى الوقت المناسب .. ! .. لكن كيف ؟ .. أليس (جابرييل) متعاونًا مع الفرنسى ؟ ..

ـ مساء الخير أيها الأجنبى .. ألم أقل لك إن الذئب سيصرخ من الألم .. ؟! ..

بصعوبة نجحت فى إخراج صوت من حلقى :

ـ إن وجهك يا سيدتى ـ فى هذه اللحظة ـ لهو أجمل وجه رأيته فى حياتى .. !

ضحكت ضحكة زنجية طويلة .. وقالت فى حياء مضحك :

ـ آها أيها الثعلب ! .. فليأخذك الشيطان على كلماتك الخبيثة ..

قال (جابرييل) فى شىء من الخجل :

ـ اغفر لى يا سيدى .. لقد غررت بكما لكنى لم أستطع أن أترككما تموتان .. كان هذا أقوى منى ..

قلت فى إعياء :

ـ ولكن حررانى أولًا ثم نتبادل العتاب ... لو أن هؤلاء المجذومين رأونا ..

صاحت الأم (مارشا) فى عصبية :

ـ أنا لا أعبأ بهؤلاء .. إنهم لن يعترضوا طريقى ..

وتناول (جابرييل) رفشًا ملقى جوار الحفرة وشرع يحررنى أنا و (هارى) فى حين أخذت أحاول معاونته عن طريق خلخلة طبقات التراب المحيطة بجسدى ... كانت المهمة شاقة لكنه أنجزها خلال عشر دقائق ..

ووقفنا ـ أنا و (هارى) ـ نترنح ونحاول التخلص من أطنان التراب التى تكسو ملابسنا .. فى حين فكت العجوز قيودنا بأداة حادة :

وهنا حدث ما كنت أخشاه ..

رأينا ـ بعيون مذعورة ـ عشرات من هؤلاء المخلوقات البشعة يقتربون منا فى الظلام ومشاعلهم تترقرق بضوء نارى رهيب ينعكس على وجوههم الغاضبة .. كانوا قادمين وقد فهموا ما هنالك .. وبعد دقائق كانت هناك دائرة محكمة منهم تقف حولنا ..

لقد انتهى الأمر كله ..

وهنا تصلب جسد الأم (مارشا) .. وبقامتها القصيرة المنحنية تتقدم نحوهم وقد تشابكت يداها خلف ظهرها .. المشهد الذى ذكرنى بمشهد عودة (نابليون) إلى جيوشه بعد منفاه .. توقعت أنها ستصرخ بعد دقائق : أنا هو إمبراطوركم ! .. فاقتلونى .. ! .. لكنها فعلت شيئًا مشابهًا ..

فى ثبات وثقة تتقدم نحوهم .. وتقف فى ضوء المشاعل لتصرخ فيهم بلغة ما ، كلمات عدة ، لم أتبين منها سوى كلمتى (مارشا) ، (فودو) .. ثم :

ـ كوجار هاشتاك ناهيرا دوس (زومبى) !..

واضح طبعًا أنها تقول لهم : أنتم لستم (زومبى) .. أو لقد أراد أن يقنعكم أنكم (زومبى) .. أو .. لقد انتهت قصة (الزومبى) .. أو أى عبارة أخرى تلائم الموقف وتنتهى بلفظة (زومبى) ..!

والآن تأمل معى هذا المشهد الشبيه بالكابوس .. المرأة القصيرة تصرخ بصوت رفيع متهدج بينما عشرات المشاعل تحوطها .. والوجوه المتآكلة البشعة ترمقها بنظرات خرساء .. والظلال تتناثر هنا وهناك مضفية على الموقف كله تأثيرًا يكاد أن يكون سينمائيًا ..

(جابرييل) يقترب من أذنى ، ويهمس :

ـ إنها تقول لهم إنها هى الأم (مارشا) التى علمت (الفودو) لكل الجزيرة .. وتقول إنهم ليسوا من (الزومبى) لأنها تعرف ذلك .. لقد سحركم ذلك الأجنبى بعقاقيره ولم يعالجكم .. جعل منكم منبوذين .. جعلكم خدمًا له تمتثلون لأوامره ..

ـ كارشاك هامور شاتهاه أى ناج .. !

يقول (جابرييل) :

ـ تقول إنكم تستطيعون أن تمزقونا .. لكننا نملك خلاصكم ..

ـ سى هاه شيس داكورك دى فرانتشا .. شيهاج .. ناشاه !..

ـ .. وتقول لهم إنهم إذا أرادوا أن يكونوا رجالًا فعليهم أن يثوروا ..

ـ ناشـاه !!

هكذا صرخ الجمع مرددًا آخر لفظة فى حماس وغليان مستمرّ متعالى النغمة .

ذلك الأسلوب الذى يسميه الموسيقيون (كريشندو) .. الإيقاع يتسارع ..

- ناشاه !!.. ناشاه !! ناشاه !!

الأم (مارشا) تخرج شيئًا من جيبها .. وتتمتم بكلمات ما فتشب النار فى ذلك الشىء ويستحيل رمادًا .. ثم تنفخ الرماد على وجوه المحيطين بها .. لابد أنه نوع ما من التعويذات غرضه تحريرهم من أثر المخدرات ..

- (ناشاه !!.. ناشاه)!!.. (كوديكا !.. كوديكا)..!..

مال (جابرييل) نحو أذنى ليفسر لى ..

- إنهم يقولون ..

(رفعت كفى) بمعنى ألا داعى هناك لذلك .. وقلت :

- نعم .. نعم .. يقولون : الثورة .. الثورة ! .. ثم : إلى الشيطان ! .. إلى الشيطان ! ..

لقد تحسنت حصيلتى من لغتكم هذه يا بنى .. ! .. لقد سمعت لفظة (كوديكا) مرارًا فى تلك الليلة المشئومة ..

الثورة تزداد صخبًا .. والدائرة تنفتح من حولنا وتكون صفًا طويلًا مسعورًا يتقدم نحو الفيلا .. والغضب فى كل العيون الملتهبة .. لقد سحرتهم هذه المرأة بتعويذتها أو بمنطقها .. المهم أن النتيجة واحدة ..

(هارى) يركض نحوها صارخًا :

- وزوجتى .. وابنى .. ؟ .. إنهم سيسحقونهما بالأقدام ..!

التفتت نحوه مبتسمة فى ثقة .. ثم أشارت للجمع الغاضب وصرخت :

- بى هاه ! .. بى هاه دوس دونيا إى بامبا .. !!

قلت لـ (هارى) مبتسمًا :

- إن لغتهم تحمل روائح اللغة الأسبانية .. من الواضح أن (دونيا) تعنى (المرأة) و (بامبا) تعنى (الصغير) .. أليس كذلك ؟

قال فى غيظ وقد احمر وجهه انفعالًا :

- ارحمنى من دراساتك اللغوية .. ! .. إن الموقف لا يناسب ذلك ... ...

المشاعل تتطاير نحو الفيلا الشبيهة بالقلعة .. النار تلتهب وتتأجج .. الدخان يتعالى .. الصراخ .. لفظة (كوديكا) تتكرر مرارًا .. إن النبوءة تكتمل : ستحترق القلعة ... د. (دالمار) يبرز من إحدى الشرفات ويحاول أن يقول شيئًا ، لكنه يفاجأ بالمجذومين يتسلقون النباتات محاولين الوصول إليه .. من ثم يهرع للداخل .... صوت صراخ .. اللهيب يتعالى ..

إن غضب الجموع لهو إعصار لايمكن الوقوف أمامه ..

(جابرييل) يقترب منى وسط الصخب ، ويهمس :

ـ سامحنى .. كنت أعمل معه مجرد ناقل للأخبار ...، ولهذا عرف أنكما صورتما (الزومبى) فى المقهى وصورتما الحقل ...، ولم أعرف أبدًا أنه خطف المرأة والطفل .. حتى عندما دسست لكما ورقة طلب الفدية لم أعرف محتواها .. فأنا لا أعرف الإنجليزية ..

ـ ولماذا لم تشرح لنا كل شىء .. ؟

ـ حاولت إنذاركما مرارًا .. ولهذا أتيت بك إلى أمى كى تقنعكما بالرحيل ...، وحين أدركت أنكما وقعتما فى الشرك ذهبت لأمى وأحضرتها هاهنا لأنها الوحيدة القادرة على إنقاذكما ..

ـ لقد جئتما فى الوقت المناسب .. لكنى لا أفهم ...، ما جدوى هذه التمثيلية ؟

ولماذا يرغب أى شخص فى امتلاك جيش من (الزومبى) .. ؟

نظر فى شرود للمشهد المروع أمامه .. وقال فى بساطة :

ـ البوكسيت ..!

ـ بوكسيت ؟ ..

ـ نعم هو السبب .. إن (جامايكا) تنتج البوكسيت .. ، حوالى ٣ مليون طن سنويًا .. وقد أممته فى عام ١٩٥٢

وألغت الاحتكارات الأجنبية (*) ، لكن د. (دالمار) وجد مكانًا غنيًا به . لهذا جند مرضاه ـ عن طريق المخدرات ـ ليكونوا عمالة غير مكلفة تستخرج له ولشركة فرنسية ذلك الخام ... ثم يقوم بتهريبه بحرًا ..

كان فى حاجة لإثارة أكبر قدر من النفور والرعب حتى يمنع الآخرين من اكتشاف مشاريعه ...، ثم إنه بهذه الخطة استطاع الحصول على ستمائة عامل مجانى فى الوقت الذى نفتقر فيه للأيدى العاملة ويفرّ مواطنونا مهاجرين إلى إنجلترا ..

ـ يا للهول .. ! .. طبيب يجعل مرضاه يعملون بالسخرة ؟! ..

هذا هو الواقع للأسف ..

ـ على كل حال لقد انتهت هذه المأساة ولن يكون هناك آخرون ..

ـ لقد قلت مقطعًا آخر من نبوءة أمى .. !!

إن المأساة تنتهى ...، النار تلتهم كل شىء ...، خيالان مألوفان يخرجان من الدخان نحونا .. (هارى) يندفع نحو الخيالين ويعانقهما فى نهم كأنه يبقى سجنهما فى ضلوعه للأبد..، (لندا) وجيمى اللذان كانا منهكين لكنهما حيّان..

(★) حقيقـة .

الأم (مارشا) تقترب منى .. فأهرع إليها وأمسك بمخالبها فى حبٍ حقيقى :

ـ أيتها السيدة الحسناء .. لن تتصورى أبدا .. لن .. أنت رائعة .. !

ـ (رفعت) .. أنت تحبنى .. أليس كذلك ؟

قالتها فى رقة مرعبة وهى تنظر فى عينى .. وابتسامة مريعة على فمها الخالى من الأسنان .. !، ياللهول ! .. لقد بالغت فى إظهار إعجابى بهذه الساحرة الشمطاء حتى ظننت .. والآن كيف أقول لها مايجول فى خاطرى دون أن تمسخنى إلى خنزير .. ؟ ! .. (جابرييل) .. ! .. أنقذنى من هذه العجوز المفزعة ! ..

قالت فى حنان وهى تمسك ذقنى بمخالبها ورائحة عطرها تخنقنى :

ـ أنا أفهم أنك تحبنى بجنون لكن .. حاول أن تنتصر على آلامك .. فأنت لا تناسبنى .. أنت ضعيف ومتراخ وأصلع .. حاول أن تتعود على فكرة أنى لست لك .. ولا تبك يا صغيرى ..! .. لا تبك ..!

الحمد لله ! .. إنها دموع الفرح ! .. إن رأيها فى لهو وسام دائم على صدرى .. وإننى لأرتجف من فكرة أن أكون قد رقت لها ..

لم تزل تنظر لى فى إشفاق .. والنار تلتهب ..

و د. (دالمار) و (مارلين) يموتان الآن ميتة الكلاب التى ظننا أنها من نصيبنا .. والمرضى يصرخون .. و (هارى) وأسرته يتعانقون دامعى الأعين.. (كوديكا) .. (كوديكا) .. شجرة أخرى تتهاوى محترقة ..

ولن يكون هناك آخرون ...

* * *

خـاتمـــة ...

قال (هارى) وهو يحتضن طفله ، فيما (لندا) تحزم حقائبنا :

- ربما كانت مصادفة أو سلسلة إيحاءات نفذناها نحن دون وعى ، لكن نبوءة (التاروت) صدقت حرفيًا .. الذئب .. الغبار الأحمر .. القلعة .. لن يكون هناك آخرون .. قلت فى إصرار :

- كذب المنجمون ولو صدقوا .. "

أخذ يضحك وهو يغمز (لندا) وقد أخذ (جيمى) يعبث فى الحقائب :

- كلما تصورت أنك فتى أحلام هذه الساحرة العجوز .. ! ، وكنت ستعود بها لمصر لتطمئن أهلك أنك وجدت فتاة أحلامك أخيرًا .. ! "

- ولم لا .. ؟ .. ربما كان من المفيد أن تقتنى ساحرة (فودو) فى دارك .. فهى امرأة باسلة تعرف كل شىء. ولولاها ماكنا هنا ..

- لكنك لست فى حل من أن تثير غضبها يا صغيرى ..

- على كل حال لقد حرمت على زيارة (جامايكا) بعد اليوم ضمن بلدان الله التى لن أزورها أبداً.. (انجلترا).. (أسكتلندا).. (رومانيا).. (جامايكا).. وحتى قريتى ...!

- أعتقد أن ..

وهنا دوت صرخة مريعة طويلة .. كانت (لندا) تتلوى على الأرض وتولول وعلى وجهها أعتى علامات الألم ..

- ذراعى .. ! .. لا ..

نظر إلىّ (هارى) فى تساؤل وهلع .. لكن لم يكن لدى تفسير لهذا الذى يحدث .. إنها ليست آلامًا روماتزمية ولا ناتجة عن نقص سريان الدم ولا ... لحظة ..! .. لقد فهمت .. ! .. أين (جيمى) الصغير ؟ .. أعتقد أننى أعرف ما هنالك ..

وجوار الفراش كان جالسًا على الأرض يحاول فى انهماك انتزاع ذراع الدمية ..!! الفتيش الخاص بـ (لندا) الذى أعطتنى إياه الأم (مارشا) وكنا قد نسيناه عندها !!...

وبسرعة انتزعت منه الدمية فكفت (لندا) عن الصراخ ..!

ووقفنا نتبادل نظرات مذهولة ..

كم من أسرار يحويها هذا العالم العجيب الذى نجهله ، لكن ما نعرفه الآن هو أن هذه الدمية ستظل حبيسة خزينة محكمة ما ظلت (لندا) حية ..

هناك أسرار كثيرة لكن الوقت قد حان كى نترك هذا البلد ... سأعود إلى (مصر) وإلى أصدقائى والجامعة وأتزوج (هويدا) ... وكالعادة لم أكن أعرف أن كابوسًا من نوع آخر ينتظرنى فى مكان آخر .. كابوسًا يفوق كل ما رأيت وكل ما عرفت ... ولكن هذه قصة أخرى .....

د. رفعت إسماعيل

القاهرة فى مايو ١٩٩٢